

كما أخبرتني العرافة
هي لا تُشبه أحدًا.. فهي فريدة
رواية
مُحمد علِيّ
تشكيل للنشر والتوزيع

كما أخبرتني العرافة

«هي لا تُشبه أحدًا.. فهي فريدة»

محمد علي



Email publish@tashkeel- publishing.com

Website www.tashkee-publishing.com

Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6555-44-0

رقـم الإيـــداع: 2017/3857

الـطبـعـة الأولى : ٢٠١٧

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

التدقيق اللغوي : أحمد المنزلاوي

الإخراج الداخلي : ضياء فريد

المـديـــر العـــام : سيد شعبان

و..

هو..

هى..

أُنا.

ويحدث أن يهبك الله هبةً تُنبتُ أرضك التي بارت فى سنينك العجاف..

لك ولأجلك كُتبت الرواية.

مقدمة..
إلى الأسوَد

عزيزي الأسود.. تحية طيبة وبعد.

ربما كنت أتغاضى دومًا عن ذِكر دورك في حياتي ولكني لا أجد برهانًا لذلك غير أن أنجب ولدًا لأتحدث عنك فقط ! ، لك كتابي هذا فتلقفه بيمينك واتلوه في خشوع فغير مسموح بقراءته فقط.

سيظن البعض أني قد مسني الشيطان وتمكن الجنون مني كي أخاطب لونًا ! ربما يكونوا صادقين ولكن أعلم ماذا أفعل وسأفعل ما أقوله دائما «دعهم يقولون إنك قد صبئت فلربما لن يدخل الجنة سواك».

لست لونًا يا صديقي، فأنت أعظم من ذلك ، فإني أرى الظلام أسود، وأرى الحزن أسود، فكيف بمن وصفوه بركني دنياي أن يكون لونًا فقط ! ، تنزهت يا صديقي عن ذلك.

صديقك الدائم رغمًا عنه:

محمد علي

١٩٩٤

«عـادة ما يكون السـكون التام دلالـةً على أن العاصفـة تتأهب للمجيء في أي لحظة»..

مسـح الحضـور الجالسـين أمامـه بنظـرة متفحصة ثم اسـتقر عـلى وجه يبـدو أنـه يألفـه نوعًا ما، فابتسـم في ثقـة وقال بصـوت جهور فاجـأ الجميع :

- إني داعٍ فأمنـوا، اللهـم اضرب الظالمـين بالظالمين.. واخرجنـا منهـم سـالمين.. اللهـم أصلـح ولاة أمورنـا.. اللهـم أصلـح ولاة أمورنا.

سـكت لبرهـةٍ ثـم عاد ينظـر إلى نفـس الوجه مـرة أخرى وقـد ازدادت نـبرات التحدي عـلى صوتـه وأردف مكررًا:

- اللهم أصلح ولاة أمورنا.

بخطـوات ثقيلـة، نـزل مـن عـلى المنـبر الشـيخ «ياسـين» إمام المسـجد ويبـدو أنـه يتمتم بـأذكار حتى حـاذى الجميـع بعضهـم بعضًا ووقفـوا ثابتين هادئـين كأنـما عـلى رؤوسـهم الطـير ينتظـرون أن يعلـن إمامهـم بدايـة فعلـه لـشيء لينطلقـوا يتبعونـه في طواعيـة شـديدة.

حـركات دراماتيكيـة مقترنة بأقـوال مخصوصـة تصحبها راحة نفسـية، هكـذا يطلقـون عـلى الشيء الـذي تختلف الأديـان أجمعهـا في هيئتهـا ولكنهم لا يختلفـون في وجودهـا أم عدمهـا، ولا يختلفـون أيضًـا في مسـماها، إنهـا « الصلاة «، سـبيل الذيـن يعتقدون بوجود شيء يسـتحق العنـاء لأجله في حياة آخـرة بعـد المـوت، ومـأوى أيضًا لمن ضـاق ذرعًـا من حياتـه فلجأ لهـا طمعًا في يـسرٍ بعـد عـسر، وعادة قـد اعتاد عليهـا البعـض كروتين يومـي لا بد منه. ولكـن الجميـع يتفـق عـلى أن الصـلاة هـي السُـلم الوحيـد الـذى تعـد نهايته في جميـع درجاتـه، فأينـما وكيفـما ووقتما صعـدت تجده، سـتجد مـن تصلي له. فعـلى الرغـم مـن اختـلاف صلاتهـم فإنهـم يتفقـون عـلى شـيء واحـد، عين ثاقبـة تراقـب مـا يحـدث في هدوء تـام، ذلـك الـذي نصلي لـه ولأجله.

- كيف حالك شيخ ياسين ؟

لم يقطـع ذلـك السـؤال انهماكـه في التسـبيح بمسـبحة يـد لا تفـارق معصمـه. ابتسـم دون أن يرفـع رأسـه وأكمـل مـا يفعل في خشـوع تـام حتى قـال ذلـك الرجـل مجـددًا:

- ظننـت أنـك اشـتقت إليَّ فجئـت إليـك مسرعًـا.. نفتقـدك ونفتقـد أيامنـا سـويًا..اعتقد أنـك لـن تنسـاها أبـدًا.

رفع رأسه ياسين ولا تزال الابتسامة تعلو وجهه ليقول:

- لا أعتقـد أني أتذكـرك فـإني ادعـوا دائـمًا أن يرزقنـي الله براحـة البال وأظـن أنكـما لا يمكـن أن تجتمعا سـويًا.

- لم تتغير مطلقًا شيخ ياسين.

- ولكنك تغيرت يا حسن بيه ! صرت أقبح من ذي قبل ؟!

ضحك حسن بصوت عال مما جعل جميع من في المسجد ينظرون نحوه فالتفت في سرعة ناظرًا إليهم في ضجر وغضب ثم أعاد نظره ثانية إلى ياسين الذي لم يحرك ساكنًا، ثم همس في اذنه:

- عندما يأتون بك إليَّ لا أريد أن أرى تلك المسبحة مجددًا.. أظن أنك سمعتني جيدًا.

قام وسار في وسط الجموع وكأنهم يفسحون له الطريق ! فطُول قامته وجسده المترهل ينبئونهم جيدًا بماهيته المخيفة، ظلوا يتبعونه بخوف على عكس إمامهم الذي ظل يتتبعه بنظرات تحد وثقة حتى غاب عن الأنظار تمامًا.

*****

قليوب- ١٩٩٤

الليـل سرمـدي، الهدوء سرمدي، لا شيء هنا يسـتطيع أن يختلق لنفسـه مسـارًا مغايرًا فلا تصفـه بالسرمدي.

قليـوب، معقـل بيبرس الحاكـم الأول لها، هنا مسـجده العتيق وبجواره تشـتم رائحـة قبـور جنـوده تزيـن آثـار تلـك البلـدة. عـلى الضفـة الأخرى، مـرت مريـم العـذراء عـلى إحـدى البقـاع فقـدس أهـل قليـوب تلـك البقعة المباركـة وبنـوا ديرًا وسـموه باسـمها.

الـكل هنـا، قليـوب؛ معشـوقة «ياسـين»، حيـث سـقطت رأسـه هنـا وتتابعـت بعدهـا رؤوس جميـع مـن أحـب.

فـرغ «ياسـين» مـن يومـه المرهق كعـادة أيـام الجمعـة وخاصـة إذا كان بمسـجدٍ لا يخلـو مـن المصلـين في الخمـس صلـوات، ولا يخلـو أيضًـا مـن السـائحين؛ هـؤلاء الذين يسـترقون صـورًا تذكاريـة ضاربين بحرمـة أوقات الصـلاة أسـفل الحائـط. تلك هي عـادة جميع مسـاجد مصر القديمـة وخاصة هـذا المسـجد، مسـجد الأقمـر القاطـن بمنتصـف شـارع المعـز لديـن الله الفاطمـي.

أعمـدة الإنـارة القليلـة تتعمـد دائـمًا أن تداعب الشـيخ وتؤنسـه في كل مـرة يعـود في هـذا الوقت مـن الليل.

أخـذت الأعمـدة تتلاعب بظل الشيخ حتى ظهـر أمامـه ثلاثة ظلال، نعم فللشـيخ ثلاثـة أرجل.

القـدم الثالثـة، تلـك التـي يراهـا العامـة عصًـا ولكنـه يـزدري كل من يقـول ذلـك، فهـي خليلته وصديقتـه الوفية، لا تـكل ولا تمل من السـير معه، يتعـب ولا تتعـب، يقدسـها كـما يقـدس «رحمـة» زوجته، لذلـك ليـس غريبًا عليـه أن ينـادي على الجميع وهو يبتسـم «ناولنـي رحمة فقد نويـت الذهاب»، لا عجـب ممـن يسـمون الأشـياء بأسـماء مـن يحبـون، فالحـب ينبـع مـن قلب وعـين وتلكـما الاثنـين لا يمتلكان عقـلًا يميز بين البـشر والجماد، بـين الناطق وغـيره، الحـب كذلك لا يعـرف أسـبابًا أو يؤمـن بالأعذار.

يمشي «ياسين» وبيده رحمة يهش بها على الأحجار التي يمكن أن تُعَثِّر طريقه، يحادثها وكأنها تسمعه؛ فمنذ أن أخبره الطبيب أنه لابد للعصا أن تقترن به طيلة حياته وأصبحت من حينها قرينته حقًا، فمنذ أن ضعف بصره قوت علاقتهما، وكلما يزيد الضعف تزيد القوة، تلك هي عصاه، تلك هي رحمة.

البيـت قديـم نوعًـا مـا، فقـد يرجـع بنـاؤه إلى والـد «ياسـين» الـذي كان يعمـل ناظـرًا لعائلـة «البرمـاوي»، تلـك العائلـة التـي كانـت تملـك معظـم أراضي قليـوب في ظـل الإقطاعيـة قبـل قيـام ثـورة ٢٣ يوليـو وبدايـة الحكـم العسـكري لمـصر حتـى الآن.

بهدوء تام، يصعد ياسين السلم حتى وصل إلى باب شقته وفور محاذاته للباب وجد الباب يفتح وحده ويخرج من ورائه صوت أشبه بلحن قد شرد من «موزارت» وسكن في تلك الشقة :

– حمدًا لله على سلامتك يا ياسين.. لا أسوأ من يوم لا أراك فيه.

بابتسامة هادئة وضع قبلة حانية على جبينها وأغلق الباب:

– تعلمين أن يوم الجمعة يكون مرهقًا نوعًا ما.. وأهل المسجد يودون مجالستي طوال اليوم.. الحمد لله على محبة الناس.

أخذت بيده وصارت به إلى المائدة ليجلس فتأتي بالطعام وهي تقول بثقة بالغة:

– ومن هذا الذي يراك ولا يحبك يا ياسين.

صمت « ياسين» للحظات ثم نظر لها وقد بدا على ملامحه الجدية:

– أتعلمين يا رحمة ! ربما قد ابتلاني الله بضعف نظري الذي يزداد من حين لآخر لكنني لا امتلك حق الاعتراض أو حتى المطالبة بالجزاء على صبري ! فمن كافأه الله بك كيف يجرؤ على المطالبة بشيء آخر ! أي شيء ذلك الذي يعادل حُسنك ورحمتك يا رحمة.

ربتت على يديه وهي تبتسم ابتسامتها المعهودة:

- وكالعـادة تفـوز في النهايـة.. لا اسـتطيع الـرد على ما تقـول فأصمت ولكنـي تلـك المرة لـن أصمت.. هنـاك شـيئًا اعتقد بأنه سـيغير أشـياء كثيرة.

انتبـه «ياسـين» وتـرك الطعـام ليجدهـا تطعمـه بيدهـا وهـي تقـول بحنـانٍ بالـغ:

- «يَـا زَكَرِيَّـا أنـا نُبَـشِّرُكَ بِغُـلامٍ اسْـمُهُ يَحْيَـى لَمْ نَجْعَـل لَّـهُ مِـن قَبْـلُ سَـمِيًّا».

لم يفهـم «ياسـين» مـاذا تقصـد في البدايـة، ولكـن سرعان ما فتـح عينيه عـلى آخرهـا وأخـذت الكلمات تتصـارع لقول شيء مـا ولكنها لم تفلـح جميعًا في الاصطفـاف وتكويـن كلامٍ يُفهـم! فصمـت، ولكـن دموعـه لا تعـرف طريقًـا إلى الصمـت أبدًا.

رفـع رأسـه إلى السـماء وكأنه يحدث ربه بأشـياء لا يسـمعه سـواهما، ثم ذهـب بعيـدًا بذاكرتـه إلى أربعـين سـنة ماضيـة وتحديـدًا في الرابـع والعشرين مـن نوفمـبر حين أطلـق صرختـه و بـدأت رحلته مـن حينها.

ياسين.. الناجي الأول.



نوفمبر ١٩٥٤

أنا ياسين.. الناجي الأول.

لم تكـــن طفولتـــي تؤمـــن بكونهـــا طفولـــة، لهـــذا نعتتنـــي أمـــي بالناجـــي الأول.

أمـي، سـيدة أهـل الأرض جميعهـم في نظـري. أنـا ولدهـا السـادس وبرغـم ذلـك كنت أكبر إخوتي سـنًا. مـات أبناؤها الخمسـة قبـل أن آتي تِباعًا حتـى لقبها نسـاء البيـت فيما بينهـم بـ»النحـس». تتغامزن وتتلامـزن دائمًا فيما بينهـن حتـى إذا طلعـت عليهـن يصمتون ويتظاهـرون بخوضهـن في حديث آخـر. تلـك هي عـادة بنـات حـواء، يتحدثـن في كل شيء دون أن تفهم شـيئًا ! إلا إذا أرادن لـك أن تفهـم ويـؤذن لـك بفـك شـفرات أشـبه بمخطوطات قديمـة لم يُعثـر عـلى كاتبهـا بعد. تحملـت أمي كل ذلـك دون أن تتفـوه بكلمة واحـدة، ولكنهـا لم تلـق بـالًا بـأن كتـمان ذلـك الحـزن بداخلها سـيقضي على الأخـضر واليابس ولم يكن هناك شـيئا بداخلها سـواي. تسـع أشـهر من ألآم الحمـل تـراود أمـي عـن يمـين ولا يخلـو شـمالها مـن ألآم حديثهم عـن موت إخـوتي الـذي لا يـلام عليـه أحـد، يـلام صاحـب الذنـب عـلى ذنبـه فقط فما ذنـب أمـي في ذلـك! وصاحـب الذنب جل عـن وصفـه بالمذنب وحاشـا أن يسـمى فعلـه ذنبًا، له الـكل والكل لـه، يحي ويميت مـن أراد، وإذا أراد شـيئًا فـما كان هنـاك متسـعًا من الحريـة لذلك الشيء، فـإذا ما نفـذت إرادته فالمصير يتجـه إذن إلى كلمتـين لا ثالـت لهما.. كـن فيكون.

الرابـع والعـشرون مـن نوفمـبر عـام ١٩٥٤، كان ذلك الوقت مناسـبًا لإطـلاق صرختي فيسـمعها جميع مـن في البيـت. تباينـت ردود الأفعال حين ذلـك، فتوقـع النسـاء اللاتي نعتـن أمي بالشـؤم موتي أيضًـا، بينما بـدا أبي غير مكـترثٍ بـما يحـدث وأعتقـد أنـه توقع مـوتي هـو الآخر. كفـر الجميـع ببقائي إلا أمـي، آمنـت وحدهـا بي فما كان مـن القـدر إلا أن يؤمن هـو الآخر.

ولدت هنا.. قليوب، في بيت يرجع أصله إلى جدي الذي أمر بمكوث جميع أبنائه وأحفاده في هذا البيت. البيت ضيق جدًا على الرغم من مساحته الواسعة، الكل مقيد هنا، أقفال على العقول والقلوب ولا يملك مفتاحها إلا رجل واحد، ناظر جميع أراضي عائلة «البرماوي» وهذا ما يعني أن ذلك الرجل يمتلك بيده الأمر والنهي في معظم أراضي قليوب، إنه جدي.

صـارم، قليـل الـكلام، يفطـن الطريـق جيـدًا إلى التفريـق بـين أبنائـه في المعاملـة والعطـاء، حتـى في الإرث أيضًـا.

كان أبي أكـبر أعمامـي سـنًا ولكنـه أبعدهم عـن جدي، لا أعلم السـبب لذلـك ولا أريد.

تربيـت هنا، في ذلك البيت الواسـع ذي الأسـقف الشـاهقة، وسـط كم هائـل من أبنـاء وبنـات أعمامي حتـى توالت النجـاة بعد ذلك. كنـت الناجي الأول الـذي فتـح بابًـا للنجاة وتركـه خلفه غـير موصد. أنجبـت أمي إخوتي تباعًـا حتـى أصبحنا ولدين وبنتـين، أنا أكبرهم سـنًا ولكن أضعفهم جسـدًا، لم تـدرك أمـي أن حزنهـا ووجعهـا سـيترك فيّ أثـرًا لن يمحـى طيلـة حياتي، لم تـدرك أن دموعهـا التـي حبسـتها بداخلها ستسـتقر في عيني أنـا، لم تدرك أمي أن سـأعاقب على ذنـب لم اقترفه أنـا أيضًا.

ولـدت ضعيـف النظر، ولم يكن غريبًـا على طفل لم يجاوز السادسـة بعد أن يتأهـب لعمليـة جراحيـة في عينيـه ليتعـين له اللعب مـع أصدقائـه مثلهم، عـذرًا لا لأكـون مثلهـم بـل يكفـي أن أراهـم جيدا واسـتطيع السـير وحدي دون أن يضايقـوني بكلـمات لم تذهـب من عقلي حتـى الآن..

أسـهمت العمليـة بشـكل كبير في إمـدادي بسـنوات أخرى مـن النور، أخـبرني الطبيـب بعدهـا أن النظـارة سـتلازمني طيلة حيـاتي ومـن وقتها وقد شـعرت بـأن لا سـبيل لي سـوى ذلك فلابـد من التعايـش إذن.

أتذكـر يومهـا جيـدًا، جاءتني أمي وأنـا بغرفتي أمسـك النظـارة وكأني أحادثهـا فجلسـت بجـواري وقالت وهـي تشـير إلى النظارة:

-عليـك يا بنـي أن تعدها جـزءًا منـك وأن تحبها، فالحب يا بني يسـهل الطريـق إلى كل شيء، أأخـبرك شـيئًا؟ يمكـن لك أن تسـميها باسـم شيء تحبه وهذا سـيجعلك تدريجيًـا تحبها.

بتلقائية طفل لم يتم ستٍ بعد، قلت مبتسمًا:

- سأسميها نعمة.

ابتسـمت أمـي في حنان شـديد وضمتنـي إلى صدرهـا فأغمضت عيني التـي كانـت مغمضـة بالفعـل، أخـذت تتمتـم بأشـياء لم أسـمعها ولكنـي شـعرت بهـا، ومـن حينهـا أصبحـت أنـا ونعمـة صديقين لـن يفترقـا إلا عند الموتتـين، مـوت أكـبر لم يحـين وقته بعـد، وأصغـرُ قـد راودني وأنـا في حضنها فخضعـت لـه، مِـتُ موتًـا أصغـر تسـمونه النوم.

الأشياء من حولي تتغير تدريجيًا، بدأت أرى الأشياء أمامي عبر صندوق زجاجي رغم أنهم في مكان آخر،أصبح كل شيء يدور إلى التطور حتى عيني، فكلما يزداد النور في عقول العالم يقل في عيني. كلٌ ينطفيء بالتدريج، حتى هوايتي الوحيدة في قراءة الصحف أصبحت من أدوات التعذيب. ولكني لا أنكر أبدًا أن ما نقص من عيني زاد في أشياء أُخر، فمنذ صغري وأنا أكثر الأطفال في الكُتَّاب حفظًا للقران وأسرعهم تذكرًا. لم يقتصر حفظي على القران فقط، فلقد كنت أحفظ الأشياء التي أريدها بمجرد سماعها، وكانت تلك هي وسيلتى الوحيدة لأنهي دراستي كطالب في كلية الشريعة والقانون. الاختلاف جيد نوعًا ما، فلم أكن كسائر الطلاب أُذاكر الكتب بقرائتها! فقد كانت لي أساليبي الخاصة؛ الكاسيت وأصوات أصدقائي المنبعثة من الشرائط الكامنة بداخله يكفيان تمامًا لأمر مرور الكرام من سنوات الدراسة. لم يكن الطريق سهلًا أبدًا، ربما عليك أن تجتاز بعض الصعوبات قبل أن تصل ولكني لم أواجه بعض الصعوبات مثلكم بل واجهتها جميعًا.

أخذ الروتين والرتابة يستمتعان بالقضاء على شغفي تجاه الحياة، حتى بعدما عُينت إمامًا لمسجد كبيرٍ وآثري بشارع يمتاز بنفس صفات المسجد، مسجد الآقمر بشارع المعز لدين الله الفاطمي.

المسافة بين قليوب ومصر القديمة وركوب المواصلات يوميًا في ظل ذلك الضوء الخافت الذي أرى به؛ أسباب كافية للمعاناة، ولكني لم أكن أمتلك خيارًا آخر، فبعدما مات جدي توارث أبناؤه كل شيء ولم يكن مفاجئًا أن ينال والدي الحظ الأقل من الإرث، قسموا البيت إلى بيوت أخرى وبنوا جدارًا عازلًا بين كل شيء، لا في المكان فقط بل في القلوب أيضًا.

حتى أتت رحمة..

كانت كالمظلة التي وقتني شر نهار مشمسٍ لا ينتهي. ربما تكون هي الوحيدة التى لا احتاج لعينين لأراها، أعتقد أني أمتلك بداخلي مستشعَرًا خاصًا بها، أراها دون أن أرى، أشعر بها إذا تعثرت بحجر في المشرق وأنا نائم هنا بالمغرب.

كان زواجنا تقليديًا كما يسميه البعض ولكني لا أعلم طريقة للزواج غيره ولا أؤمن بغيره أيضًا. كان البصيص المتبقي بعيني كافيًا لأدون بداخلي تفاصيل وجهها التي لم تغدوا من قلبي وعقلي ووجداني من حينها. أسهمت صداقة أُمَيْنَا بشكل كبير في إتمام الزيجة غير أني لم أكترث أنها تكبُرُ أخواتها سنًا والوحيدة التي لم تتزوج بعد، ربما كنت ضعيف البصر وقتها ولكن ماذا فعل المبصرون؟ تركوا رحمة حتى جاوزت السادسة بعد العشرين لتوافق على «شبه كفيف» مثلي، بصري ضعيف نعم ولكن بصيرتي كانت قوية بالقدر الكافي لأرى فيها ما لم يراه الآخرون، واتخذت حياتي مسارًا مختلفًا منذ ذلك الوقت..

٢٤ نوفمبر ١٩٨٤، يوم ميلادي الحقيقي، فإن الثلاثين عامًا المنصرمين لم آتي للحياة فيهم من قبل، أظن أنني كنت في غار اختبئ فيه من كفار الإنسانية، أو نمت في كهفٍ هربًا من بطش ماضٍ متجبر، لا أعلم تحديدًا أين كنت ولكني أوقن تمامًا أني ولدت يوم أصبحت رحمة تتكفل ببناء خيمة على كتفيها لتستريح عليها رأسي المتعبة.

أصبح الظلام يقل في استيطانه لرؤيتي، زادت رغبتي في الغد، أريد أن أعيش كأني لم أولد من قبل، لا يهم أن أرى شيئًا فهي ترى.

تغير كل شيء واتجه في المسار الذي لم آلفه من قبل عدا شيئًا واحدًا؛ مجابهتي للظلم من على منبري، لا أخشى أحدًا. وعلى الرغم من أن تلك الفترة المظلمة من حكم مصر كانت تتميز بتكميم الأفواه؛ فإن صوتي يصدح عاليًا في الأرجاء هنا وهناك.

كان المسجد ملاذًا دائمًا لعشاق الدبابير المعلقة على الأكتاف. ينتابني القلق عندما لا أنعم بزيارتهم الكريمة كل يومين ليأخذوني إلى هناك لأخبرهم برأيي في ألوان الحوائط الجديدة.

لم يجرؤ أحد من ذلك النظام العفن على عزلي من المسجد نظرًا لمحبة أهل المسجد لي وكانت لتقوم ثورة لأجلي لن يفلحوا في إخمادها أبدًا.

الدين سياسة، والسياسة درب من دروب الدين. وهذا المنبر سبيل مهم لإنارة العقول والقلوب معًا، وجبانٌ ذلك الذي بيديه سيف ويملك بساتين من التفاح ولا يطعم المساكين منه، المغلوبين على أمرهم، الضعفاء. هؤلاء الذين أخذوا بظاهر «أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ولم ينتبهوا إلى المعنى الكامن بداخلها فقد جاء ذكرهم بعد الله ورسوله لبيان أنهم يتبعونهم وحاشا لولاة أمورنا أن يفعلوا ذلك. لذلك، أنا لهم بالمرصاد، وأهل المسجد خلفي، أنا إمامهم الذي يرى صغيرهم أني أبوه ويرى الكبير أني وَلده الذي تمنى دائمًا آن ينجبه. كنت أخبئ عليهم زياراتي الدائمة لمراكز المخابرات وأمن الدولة كي لا يثار قلقهم ويبدو أنني قد تعودت أيضا على ذلك. آلاف التهديدات التي رمتها إلى أعينهم

وأسـلحة الـردع التـي طالمـا رأيتهـا منصوبـة في كلامهـم وتحذيراتهـم ولكني كنـت أبـدو إمامهـم كديـك الصبـاح، هـادئ ليـلًا، أمـا بالصبـاح أصـدح بالصيـاح في كل مـكان، وصباحـي هنـا، عـلى هـذا المنـبر.

ربما كانت جميع الزيارات تشبه بعضها إلا واحدة، أتذكرها جيدًا..

كنت بالمسـجد اسـتعد للمغـادرة وإذ بشـابين يافعين ينتظـراني بالخارج وفـور مـا رأوني أسرعـا إليَّ ومـد أحدهما يـده قائلًا:

- دعنا نوصلك الليلة يا شيخنا.

ابتسـمت لهـم، علمـت ماهيتهـم مـن تلفتهـم يمينًـا ويسـارًا، لم أتـردد لبرهـة واحـدة وذهبـت معهـم. لم يغلقـوا عيني طـول الطريق لأنهـم يعلمون أنهـا تـكاد أن تكـون مغلقـة بالفعل.

فـور مـا وصلنـا إلى المـكان الـذي ربما أذهـب إليـه أكثر مـن المرحاض، سـمعت صوتًـا قادمًـا مـن آخـر الغرفـة، صوتًـا يبـدو أننـي أسـمعه للمـرة الأولى، هـذا ليـس بصـوت العقيـد «ثـروت السـمان» ولا بصـوت النقيـب «مدحـت الوايـلي»، كان الصـوت أجشًـا مـر في أذن تلكـما الشـابان قائـلًا:

- اتركوه.

تـركاني وخرجـا كأن القطـار يقـف بخـارج الغرفـة وسـيتحرك منـذ سـاعتين.

ظهر أمامي صاحب ذلك الصوت، بدا رجلًا عريض المنكبين، شاهق الطول، مترهل الأطراف، ذا عينين ثاقبتين كرَامٍ يترقب طيران الفريسة في أي لحظة.

لم يجلس أمامي كما فعل أصدقاؤه السابقون، سحب كرسيًا ووضعه بجواري وجلس وهو يشير إلى المسبحة التي أظل دائمًا أطوف بأصابعي نحوها وقال:

- جميلة تلك المسبحة يا مولانا.

نظرت إليه مبتسمًا كأنني أملك عينين أراه بهما جيدًا:

- أعلم.

قام من مجلسه ومد يده إلى الهاتف القابع على مكتبه في آخر الغرفة وأشار لي بعد ما رفع السماعة على أذنيه:

- ماذا ستشرب يا مولانا ؟

لم أتردد لثانية واحدة وقلت بهدوء:

- علمتني أمي أن لا آكل ولا أشرب في المرحاض.

لم يكن ردي مدهشًا مثل رده بعدها، فكأنه لم يسمع شيئًا وطلب قهوته المعتادة وعاد ثانية إلى جواري ولكن تلك المرة كان يحمل بيده أشياء لم تكن واضحة لي جيدًا ولكنها تشبه الأسهم. تأكدت من ذلك حينما وجدته يمسك بتلك الأشياء ويقذفها بعنف تجاه الباب ولكن صوته كان رصينًا:

- شيخ ياسين.. لابد لتلك المهزلة أن تقف الآن.. إن كان زملائي طيبين فاعلم أنني لا أملك قلبًا يقف في طريق شيء في صالح هذا البلد.

لم اتمالك نفسي مما سمعته من هراءٍ وضحكت بسخرية ونظرت له:

- صالح هذا البلد! حقًا! أنتم تريدون صلاح هذا البلد! ربما تقصد أيضًا أني سبب خرابها!! الآن علمت لماذا أخذ الله عيني، فماذا فعل من يملك عينين؟! الحمد لله أني لا أحتاج عينان لأرى الحق بهما، وآه نسيت أن أخبرك؛ لقد سمعت ما قلته أنت مرتين من قبل، وها أنا أمامك الآن يبدو أنني سأسمعها للمرة الرابعة.

ثار غضبه وصاح بأعلى صوته ليأتي الشابان مرة أخرى ولكن هذه المرة يبدو أنهم أتوا بصحبة أبويهم أيضًا. أمرهم بزجي في بيتي الثاني الذي أشتاق إليه كثيرًا؛ الحبس الانفرادي.

ربما يخاف الجميع من الظلام هنا أما أنا فلا أملّ من أنيسي وصديقي الدائم.. الأسود. ذلك اللون الذي استوطن داخل الألوان جميعها فأصبحت أرى الألوان جميعها تؤدي إليه. هذا السجن الذي أراه رغم ضيقه فهو واسع إلى مد بصري الذي لا أملكه، أرى الجنة خلال ثقب الباب الذي يقف وراءه جند أبليس، هؤلاء الذين لم يمتلكوا عقلًا يومًا يميزون به أن إبليس لن يدخل الجنة فكيف بجنوده.

طالت تلك الفترة التى قضيتها هنا عن أخواتها السابقين حتى شعرت بأن القلق قد أكل ما تبقى من «رحمة» من صبر وأهل المسجد كذلك، وربما شعروا بذلك هنا أيضًا لذا وجدت باب الزنزانة يُفتح وإذ بذلك الرجل يدخل بعدما نادى عليه جنده الأمين:

- تفضل يا حسن بيه.

دخل علي مبتسمًا كأن شيئًا لم يحدث، لم يقل سوى كلمات قليلة وانصرف دون أن ينتظر مني تعقيبًا عليها وأشار لجنده أن يخرجوني.

أتذكَّر ما قاله جيدًا وهو يهمس في أذني مبتسمًا:

- لو أنك لا تخاف على نفسك فخف على بيتك.

لم يجرؤ الباقي على تحذيري كهذا من قبل، ولكنه يبدو مختلفًا عنهم.

أوصلني ذلك الشابان إلى المسجد مرة أخرى وكانت الشمس قد تعامدت بمنتصف السماء لتعلن دخول وقت صلاة الظهر. دخلت المسجد فوجدت الجميع يقدمون نحوي مسرعين فابتسمت لهم جميعًا وأخبرتهم بأني كنت مريضًا ولم أكن قادرًا على المجيء، ربما صدقوني جميعهم عدا «جابر» مؤذن المسجد أو كما أسميه «بلالنا»، يبدو أنه ذهب إلى بيتي ليطمئن علي ولم يجدني نظرًا لأنه الوحيد الذي أوصلني للبيت كثيرًا.

فرغنا من الصلاة وعدت إلى البيت مسرعًا وبداخلي دافعٌ قاتلٌ بأن ارتمي بين ذراعي «رحمة» فقد مللت من تظاهري قويًا. وهذا ما حدث.

أتذكَّر أنني لم أقرع على الباب سوى مرة واحدة حتى فتحت كأنها كانت تجلس بجواره، وما أن فتحت حتى وجدت ما توقعته، نال القلق منها وأخذ النوم من جفونها فلم تنم، رأيت ذلك عبر البصيص الصغير المنبعث من عيني. وبرغم كل ما بها؛ فتحت ذراعيها لي وابتسمت فهرعت إليها تاركًا كل شيء، فهنا موطني ولا أعلم لي موطنًا آخر، هنا ولدت وهنا أموت وهنا أبعث حيًا، فكأنها خلقت لتكون لي كأخ يوسف الذي حال بينه وبين الموت واقترح برميه في غيابات الجب، أو كأنها ككبش إسماعيل لي، أو أنها كأمر الله للنار ألا تحرق إبراهيم، فكأنها خُلقت لتكون أُمًا وسندًا ووطنا..

لم يــأت أحــد مــن هــؤلاء العاملــين بالمرحــاض طيلــة شــهرين رغــم أني لم أغــير حديثــي ولم يثنينــي ترهيبــه عــن مــا أفعــل، مــا زال المنــبر صوتــه عــالٍ بالحــق، حتــى أول جمعــة بعــد الشــهرين مــن زيــارتي الآخــيرة لهــم، أتذكَّــر تفاصيــل ذلــك اليــوم جيدًا؛لأنــه يعــد يومًــا مهــمًا بــين أيامــي جميعهــا.

وجدتــه يومهــا بــين صفــوف المصلــين مبتســمًا كــما عهدتــه ولا تخلــو نواجــزه مــن الغيــظ المخبــأ بأحــكام خلــف تلــك الابتســامة الصفــراء، أخــبرني يومهــا أنــه يفتقــدني ويفتقــد زيــارتي المعهــودة دائــمًا التــى تأخــرت في الفــترة الأخــيرة! يبــدو أنهــم لم يطلــوا حوائــط جــدد فلــم يطلبــوني ليأخــذوا رأيــي فيهــا.

كانــت إيماءاتــه تشــير إلى أننــي ســأزوره قريبًــا فلــم أهتــم كالعــادة وعــدت للبيــت ليــلًا كعــادة أيــام الجمعــة المرهقــة لأجــد رحمــة تنتظــرني بخــبرٍ قــد جعلنــي أغفــل للحظــات أتذكَّــر فيهــا كل مــا مــررت بــه في حيــاتي ويمــر أمــام عينــي كأنــه يحــدث الآن، أرى الآن كل شيء بوضــوح تــام.

تــلألأ في أذني اليمنــى صــوت رحمــة الدافــئ وهــي تقــول «يــا زكريــا أنــا نبــشرك بغــلامٍ اســمه يحيــى لم نجعــل لــه مــن قبــل ســميا»، ويســطع صــوت «بلالنــا» في أذني اليــسرى «هــذا مــا وعدنــا ربنــا حقــا».

زكريـا أنـا، سـنوات كثـيرة أنتظـر ذلـك الطفـل، لا أريـد أن تنتهـي علاقتـي بـــ «رحمـة» في الدنيـا بالموت، ففـي الآخرة أعلـم أنني لـن أقوى على طلـب غيرهـا زوجـة لي، لذلـك أردت ولـدًا منها يشـد مـن أزري وعضدي، وقـد حـدث. لقـد ناجيـت ربي كثيرًا كما دعـا زكريـا فاسـتجاب لي ربُ زكريا كـما اسـتجاب له.

شـعرت بالخـوف، أعتقـد أنهـا المـرة الأولى التـي أشـعر فيهـا بذلـك الشـعور، بـدأت الهواجـس تتنـاوب عـلى عقـلي حتـى أهلكتنـي، أصبحـت أفكـر فيما سـأقوله قبـل أن أعتلي المنـبر، هم طغاة لـن يهتموا بأن ولـدي الذي أنتظـره ربـما لـن أراه ولكني حتمًا أشـعر بـه من الآن، هـم طغاة لا يرون شـيئًا إلا.. لا ليـس هنـاك مـا يرونـه فهـم يسـمعون فقط.

تسـعة أشـهر مـن الانتظـار والتعب أيضًـا، فلقد تقـدم العمـر بـ»رحمة» ولم يكـن الحمـل هينًا عليهـا أبدًا.

فبعدمـا مضى النصف الأول من ديسـمبر في تلك السـنة «١٩٩٤» وبدأ النصـف الثـاني بتعريـف نفسـه كبدايـة عهـد جديـد. يـوم الجمعة، السـادس عـشر مـن ديسـمبر، الجميـع بانتظـاري هنـا لأخـرج عليهـم ليـؤذن جابـر بـالأذان الثـاني وأن أعتـلي المنـبر وأخاطبهـم كـما أفعـل دومًا.

هممـت بالخـروج من الغرفـة المخصصة لي بالمسـجد لأجد الشـابين مرة أخرى يمسـكان بيـدي ويهمس أحدهـم في أذني قائلًا:

- إن «حسن بيه» يدعوك لتناول الغداء معه بعد الصلاة.. ننتظرك.

خِفـتُ حينهـا، فقـد تركـتُ «رحمـة» يومهـا تعاني مـن آلام كثـيرة فهذا شـهرها الآخـير وكـدت لـن آتي للمسـجد اليـوم ولكنهـا طمأتنـي كعادتهـا واتصلـت بأختهـا لتجلـس معهـا حتـى أعـود، ولكنـي أعرفهـا جيـدًا، لـن تطمئـن إلا وأنـا هنـا إلى جوارهـا.

أنهيت الخطبة مسرعًا تلك المرة ليأتي الشابان إليّ ويأخذان بيدي حتى صرنا عند الباب لأجد رجلا من أقصى الشارع يسعى، لم ألمحه جيدًا ولكني أفطن إلى هيئته، إنه «إبراهيم» ابن أخت رحمة التي تركتها معها في البيت.

علمـت سر تلـك الهرولـة التـي أقـدم بهـا نحـوي فالمستشـعر الـذي بداخـلي قـد أخبرني بما سـيقوله «أدهـم»، وصدق حـدسي وما كان لشـعوري برحمـة أن يخطـئ أبدًا:

- شيخ ياسين.. لقد أنجبت خالتي معاذًا.

إنه ابني.. وكأنه خلق معاذًا من خطايانا.

هو..

وكأنني خُلقت معاذًا من خطاياكم.. أنا معاذ.. الناجي الأول بعد الأول.

وُلـدت لأبوين كالشـمس والقمـر جعلا مني يوسـف، ياسـين ورحمة، الأول علمنـي كيـف أحـب الله والأخـرى علمتني كيـف أحب نفسي.

تربيـت في بيـت لا تنقطـع منـه أعـواد البخـور ولا أصـوات الهمهمـة بـالأذكار صباحًـا ومسـاءً.

الهـدوء والراحة سـمتان تميـزان طفولتي في ذلـك البيـت، في بلدة تعتبر مـن أهم بقـاع الأرض في نظـري، قليوب.

والـدي، القـدوة والمثـل الأعـلى الـذي لا دونـه أحـد ولا يجـوز ذلـك لأحـد، إمـام مسـجد كبـير بمـصر القديمـة، شـيخي وأسـتاذي الأول وبطـلي الدائـم عـلى الإطـلاق.

ربـما تعـد ملامـح طفولتـي التـي أثـرت في شـخصيتي كثـيرًا تتلـون في لوحـة رسـمها أحـد أصدقـاء والـدي مـن أهـل المسـجد الـذي يعمـل فيـه عندمـا أهـداني كتابًـا وأنـا لم أكـن قـد تمرسـت القـراءة كعـادة طفـل لم يجاوز خمسـته بعـد، أتذكـر أنـه كان كتيبًـا صغـيرًا لأعـداد مـن قصـص كانـت تَصـدر في ذلـك الوقـت تحمـل اسـم» فـلاش«. تعلمـت القـراءة عـلى يـدي تلـك القصـص التـي لطالمـا رأيـت نفـسي بطلهـا الأوحـد. وأتذكـر أيضًـا أن والـدي قـد أعطـاني مصحفًـا وأخـبرني بـأن القصـص التـي سـأقرأها هنـا لـن أنسـاها أبـدًا فتعلـق قلبـي بالقـرآن ولم يعـرف الطريـق مـن حينهـا إلى الإفـلات منـه.

والـدتي، أو كـما أناديهـا مثلـما رأيـت أبي يفعـل منذ ولـدت «أُمتـي». لم أكـن ليتعـين عـليّ فهم تلـك الكلمـة وأنا صغـير ولكنـى أيقنت تمامًـا كم بأبي مـن حب لهـا قـد غمـرني دون أن يقصد.

هـي السـند الذي مـا جاز له الانكسـار أبـدًا حتى وإن وهنـت عكائزه، هـي التـي تعـرف أن لي يـدًا ثالثـة لم يرهـا غيرهـا كي تشـدني منهـا أن كُسرت يـدايَّ الاثنـين ولم أعـد أقوى عـلى التحمل.

كل ذلـك، قـد جعـل منـي ذا قضيـة منـذ صغـري، الأول والجميـع ورائـي؛ في الدراسـة الأول عـلى الصفـوف جميعهـا، في الكليـة رئيسًـا لاتحـاد الطلبـة ويـراني الجميـع قـدوة لهـم، في الكتابـة شـاعر الجامعـة وأُنظـم الكثـير مـن الصالونـات الأدبيـة بالجامعـة وخارجهـا، هـذا وقـد كنـت طالبًـا بكليـة الهندسـة بجامعـة القاهـرة.

كانـت القضية الفلسـطينية تشـغل كل ما بي من أفـكار وأوراق قد أدت بي كثـيرًا إلى زيـارتي المحببـة لأمـن الدولـة. لم أتنـازل يومًا عن وصفنـا برجال نـترك بنتنـا تُغتصـب متظاهريـن بأننا لا نرى شـيئًا وأنهـم شـعب الله المختار. لسـت أنـا مـن يقبل ذلـك، وجميع مـن يراني قـدوة له يـرى ذلك أيضًـا، وكلما تزيـد محبـة الطلبـة لي تزيد زيـاراتي للدبابير كـما يلقبهم أبي.

لا أعلـم مـا كنـت لأفعـل دون «فريـدة»، صديقتـي المقربـة التـي مـن دونهـا مـا كنـت لأعبر مـن سـنة واحدة بهـذه الكليـة، لـن أتحدث عنهـا الآن فسـيأتي دورهـا فيـما بعد.

كقائدٍ لـه مكانتـه المرموقـة بـين الجميـع؛ لم أخلو من وسوسـات نسـل حـواء ولكنـي لم يكـن لدي متسع مـن الوقت كـي أعيرهـم اهتمامـي فكنت اكتفـي بالاسـتعاذة بـالله من وسوسـاتهم.

ولكنـي لم أفلـح في صمـودي كثـيرًا، هناك لحظـة تمر بها بـين حين وآخر أن لم تربـط على قلبك سـتفلت زمـام كل شيء، وحدث..

حبيبـة، صفتهـا واسـمها، ولـدت لتكون تلك هـي مهامها الرئيسـية في الحيـاة؛ حبيبة..

تـدرس الهندسـة أيضًـا ولكـن في قسـم «العمارة» أمـا أنا فقـد نويت أن أدرس بقسـم «الميكاترونكس» منـذ أن وطأت قدمايَّ هـذه الكلية، واخترت ذلـك القسـم؛ لأنـه حقل هندسي واسـع ومتشـعب جـدًا، وهـذا الحقـل الهندسي يجمـع بـين الهندسـة الميكانيكية، والهندسـة الكهربائيـة، وهندسـة الحاسـوب والالكترونيـات، ويتضمـن تصميـم أي منتـج يعتمـد عملـه على دمـج أنظمـة ميكانيكيـة وإلكترونيـة، إذ يقوم بدور المنسـق فيـما بينهما ووضع منظومـة تحكمهـا، يعنـي ذلـك أننـي وددت أن أرى الطريـق الذي يـؤدي إلى صنـع إنسـان إلى ببسـاطة ووضوح.

رأيـت حبيبـة للمـرة الأولى في إحـدى نـدواتي الشـعرية، ظننـت أنها في البدايـة أتـت لتحـضر النـدوة بكامل إرادتهـا ولكني اكتشـفت بعـد ذلك أنها كانـت تنتظـر صديقتهـا التـي آبـت أن تغـادر حتـى نهايـة النـدوة فاضطـرت حبيبـة أن تجلس وتسـتمع.

وكـما اعتـدت دائـمًا أن أمشـط بعينـي الحاضريـن أمامـي بابتسـامة هادئـة ولم أدرك حينهـا أني ظللـت لدقائـق أقـف بنظـري عنـد حبيبـة ولم أحـرك سـاكنًا، لا أعلـم مـاذا حـدث حينهـا، كانـت كالـوردة التـي نبتـت في صحـراء جـرداء لا تؤمـن سـوى بشـوك الصبـار، رقيقـة هـي كنسـيم الفجـر، جميلـة هـي كلا شيء غيرهـا.

ذهبت إليها ولم أنسَ أن أضع منومًا لعقلي كي لا يمد رجليه ويعركلني فأندم طيلة حياتي أني لم أذهب إليها، ربما لن أرها ثانية وربما تكون غير حقيقية وقد خُيل إلى أنها إنسية، ولربما أيضًا قد قد راودتني أعراض الفصام مرة أخرى فأصبحت أرى ما لايراه الآخرون؛ ماهو ليس موجودًا من الأساس.

وبرغـم أني شـاب قـد تمـرس عـلى الحديـث أمـام آلاف الأشـخاص أصبحـت ألملـم بعـض الكلـمات لأصيـغ عبارة تـدل على مـا يجـري بداخلي، إنهـا ثـورة تجتـاح باليابس والأخضر معًـا، أقف أمامهـا صامتًا أنظـر في عينيها «الرماديتـين» وقـد رأيـت فيهـما مـا لم يـره عـالم فلـك قـد جـاوز عقديـن من العمر.

- أظن أني رأيتك من قبل! صحيح؟

بـدت مسـتاءة في البدايـة، اندهشـتُ من ذلك؛ فإنها ليسـت عـادة جميع النسـاء اللاتي أتحدث معهـن لأول مرة، فالطبيعي أنني أنظر في محل سـجودي أمـا هـن فلا تتركن في وجهـي تفصيلـة إلا وحفظنها، ولم تفعل هـي ذلك، بل وتظاهـرت كأنهـا تنظـر إلى صديقتها التي ربـما ذهبت لتفعل شـيئًا وقالت:

- لا .. لا أظن ذلك.

أتـت صديقتهـا في ذلـك الوقت تنظر لي في دهشـةٍ على الرغـم من حبيبة التـي لم تكـن تنظـر لي مـن الأصـل، وقبـل أن تلقي عـلى صديقتها السـلام إذ بحبيبـة تأخذهـا مـن يديها لترحـلا، تركتنـي واقفًا في مـكاني ما زلـت أنظر في عينيهـا رغـم أنهـا قد رحلـت!، مـن وقتها وقـد شـعرت أن الزمام قـد تفلت مـن يـدي ولم أعد قـادرًا عـلى الرباط عـلى قلبي كـما تعودت.

شـهران مـن البحـث غـير المُجـدي في الجامعـة كلهـا، لم أتـرك موضعًا إلا وبحثـت عنهـا فيـه؛ في أماكـن المحـاضرات، في النـدوات، في المطاعـم، حتـى مكتبـات تصويـر المسـتندات لم أبرحهـا!، لم يكـن عـليّ سـوى الانتظار ولم يكـن عـلى صديقتهـا سـوى أن أرهـا صدفـة، تلـك الصدفـة التـي طالمـا سـميتها دربًـا مـن دروب القـدر..

تخليـت حينهـا عـن ثـوب الرزانـة والوقـار وهرولـت إليهـا مسرعًـا لتقـف أمامـي صديقتهـا مبتسـمة يعلـو ملامحهـا شـيئًا مـن الأمـل غـير المجـدي فقلـت دون تفكـير:

- أين هي؟!

لترد هي بهدوء قد مر بي مرور الرياح الباردة:

-لا أعلم.. لم تأتي الجامعة منذ شهرين.

- أعلـم ذلـك فقد بحثـت عنهـا في كل مكان طيلـة الشـهرين الماضيين ولم أجدها!

اندهشت قائلة:

- ولماذا تبحث عنها؟ أتريد منها شيئًا أبلغه لها ؟

رددت بحدة بالغة:

- يعني ذلك أنك تعرفين مكانها ليس كما ادعيتي منذ قليل!

تلعثمت، وهمت بالمغادرة ولكني لم أتحرك من مكاني ولم أمسك بها، فلا زلت أنا، لم ينزلق عني رداء الوقار كله بعد، لتعود إلى تقدم قدمًا وتأخر أخرى لتقول كمن يبحث عن نجدةٍ:

- حبيبة تعلم أنك تبحث عنها لذلك لم تأتي.. لا أعرف ماذا أقول لك ولكني واجب علي أن أحذرك.. لا تحاول الاقتراب منها فلن تكون العواقب جيدة أبدًا.. رغم أني أرجو ذلك.

قالت لي ذلك ورحلت، لم أفهم تحديدًا ماذا تقصد ولكن بطبعي العنيد ما زادتني تحذيراتها إلا إرادة، لم أعتد على الانسحاب من حرب قبل أن أُهدى بجرح حتى وإن فزت قبل أن أخوض الحرب.

في ذلك اليوم قبل أن أغادر تتبعت المكان الذي ذهبت إليه صديقتها لأصل في النهاية إلى قسم «العمارة» بكليتنا! شهرين من البحث في جامعة كبيرة مثل جامعة القاهرة ولم أترك فيها مكانًا إلا وبحثت عنها فيه وفي الأخير تكون هي بقسم آخر في كليتي، ولكني دائمًا لا ألتفت إلى الباب الذي يحجب النور وأذهب إلى ثقب المفتاح أرى من خلاله كل ما أريد، فوجود حبيبة في كليتي قد سهل عليّ نصف المهمة تقريبًا، فبكوني محبوبًا من الجامعة كلها بحمد الله لم تخلو تلك المحبة أيضًا من قلوب الموظفين بشئون الطلبة بكليتنا. ذهبت إليهم متظاهرًا أني أبحث عن طالبة تدرس بقسم «العمارة» قد فازت بجائزة في مسابقة أقامها اتحاد الطلبة بالجامعة، وبما أنها قد تغيبت عن الحضور لشهرين فقد وجب عليّ كرئيس اتحاد الطلبة

أن أبحث عن عنوانها بنفسي لنرسل لها جائزتها حتى البيت، كذبت وأنا أعلم ذلك، ربما تلك هي الخطيئة الأولى التي كانت لتنبهني أني في الطريق الصحيح للسقوط في الهاوية ولكني لم أنتبه لذلك، أو بوضوح شديد تجاهلت أن أنتبه لكل شيء قد يعركلني عما أنوي.

وجدت عشرات الطالبات التي تحمل اسم «حبيبة» في قسم العمارة في جميع السنوات الدراسية بالكلية. لم يكن الأمر سهلًا، ولم تكن إرادتي ضعيفة لأتراجع عما أريد، خطر بذهني أفكار كثيرة ولكني اهتديت إلى أصعبها، أن أذهب لأستاذ مادة « الرياضيات» أستاذي المفضل والذي طالما اعتبرته كوالدي وأعلم أني أمتلك حظًا طيبًا من محبته أيضًا، واخترته بعينه؛ لأنه هو الأستاذ الوحيد الذي يدرس لجميع الأقسام وقد توقع حدسي أنه درس لها ويعرفها ولم يكن ليخيب ظني فيما أتوقع ابدًا.

ذهبت إلى مكتبه وقد أذن لي بالدخول مستقبلًا إياي بترحيب شديد:

- معاذ.. تفضل.

سلمت عليه ورأسي تدور بأفكار كثيرة تؤدي بي في النهاية إلى طريق أعرف منه ما أريد دون أن يرمقني بنظرة شكٍ واحدة:

- أستاذي العزيز.. أعلم أني مقصر في حقك كثيرًا، ولكني أعلم أنك ستلتمس لي عذرًا ليس لي الحق فيه.

ابتسم قائلًا:

- لا تقل ذلك فأنتم جميعًا أولادي.. بلغ سلامي لشيخنا الحبيب.

هززت رأسي موافقًا وقلت:

- سأبلغه أن شاء الله.. وأعتذر إليك يا أستاذي لي عندك طلب وكلي أمل أنك ستساعدني.

انتبه وأماء برأسه أي تفضل، فأردفت:

- كنا قد نظمنا مسابقة للطلبة على مستوى الجامعة كلها ونجح فيها بعض الطلاب من كليتنا وأعطيناهم جائزة عدا واحدة لم تحضر منذ شهرين ولا نعلم كيف نصل إليها.

ساوره الشك بعض الشيء وسألني:

- من هي؟

فقلت محاولًا -بجميع قواي- أن أتماسك مظهرًا ابتسامتي الهادئة:

- طالبة اسمها حبيبة بقسم العمارة.. لا أعلم في أي صف تدرس ولكني أعرف شكلها.

انتبه أكثر وقال:

- صفها لي.

وقبل أن ينطق لساني بالإجابة على سؤاله انتبهت جيدًا لأني أن تركت العنان للساني بالحديث سيعم الخراب بكل شيء، فإذا تحدث خرس الجميع بما فيهم عقلي المسكين الذي لم تعد له القدرة على إيقافي كالمعتاد.

تنفست الصعداء وأنا أقول بعدم اكتراث واضح:

- لا أتذكر جيدًا ولكنها بيضاء وطويلة ونحيفة بعض الشيء.

بادر الاستاذ مسرعًا:

- تقول إنها تغيبت منذ شهرين؟

- نعم.

أسند ظهره إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه وقال بثقة شديدة:

- إنها هي.

فرحت فرحًا شديدًا ولاحظ هو ذلك، فإن تمالكت نفسي سيساوره الشك لذا أكملت فرحي قائلًا:

- الحمد لله أننا وجدناها .. فإن الأمانة لابد وأن تذهب إلى صاحبها من يدري من سيعيش أبدًا؟.

ابتسمَ معلنًا انتهاء مغامرتي تلك بالفوز الساحق وتناول ورقة وكتب بداخلها شيئًا وأعطاها لي وقبل أن أرى ما فيها شكرته كثيرًا وخرجت من مكتبه وأنا أقرأ ما في الورقة رغم أن ما فيها تكفي ثانيتان فقط لقراءته .. «حبيبة مُنذر».

ذهبـت إلى مكتـب شـئون الطلبـة مـرةً أخـرى وأنا أحمـل معـي الورقة التـي بداخلهـا الاسـم ليعيدوهـا إلى مـزودةً بالعنـوان وهنـا بـدأت في مهمـة أخـرى، بـدأت في البحـث عـن طريقة أذهب بهـا إلى بيتهـا غامضًـا عيني عن سُـباب عقـلي الـذي كـره تكبيلـه في سـجن لم يألفه مـن قبل.

ودون تـردد ذهبـت إلى العنـوان الموجود بالورقة، بداخـلي شيء يدفعني نحـو مـا نويت فعلـه، وبداخلي أشـياء كثـيرة تحـاول أن تثنيني عن تلـك النية التـي لم أكـن أدرى أن عواقبهـا سـتكون وخيمةً لهذا الحـد أبدًا..

❋❋❋❋❋

« عابدين »

تلـك هـي المنطقـة التـي كان يشـير إليهـا العنـوان الموجـود بالورقـة، ومـن حسـن الحـظ أني أحـب تلـك المنطقـة كثـيرًا نظـرًا لمكانهـا القريـب مـن «ميـدان التحريـر»، هنـا اختبأنـا مـن هجـوم الدبابـير علينـا، وهنـا وجدنـا البيـوت المفتوحـة لنـا بإيـمان راسـخٍ بـما نفعـل، هنـا حيـث رائحـة وسـط البلـد القديمـة تفـوح مـن المبـاني والمقاهـي خصوصًـا في ذلـك الوقـت.. ديسـمبر.

الوقت مناسب جدًا ليصعد « ياني» على حافة أذني ويشير لجنوده المخلصين أن يمسكوا أسلحتهم الحانية لتنطلق الثورة إذن، ثورة سماها « ياني « بالعاصفة، وهي كالعاصفة حقًا، كان المشهد السيريالي يخيم تمامًا على الأجواء؛ شاب يقف في منتصف شارع « محمد محمود « أطوف بعيني بين الألواح والأرقام المعلقة على أبواب العمارات حتى اهتديت إلى العنوان الموجود بالورقة لأجد على باب تلك العمارة حارسها، سألته عن الطابق الذي يسكن فيه الأستاذ « منذر « فدلني على الطابق الخامس، صعدت ولم تكن بداخلي أي خطط أو تدابير لما سأفعل..

و..

لم تكـن زيـارتي لحقـل الدبابـير تلـك المـرة كالمـرات السـابقة، فعندمـا أخـبرني «إبراهيـم» بـأن رحمـة قـد وضعـت معـاذًا وراودني شـعورٌ وقتها بأن النـور الـذي اقتحـم ظُلمتـي وقتهـا لـن يـدوم طويلًا..

الطريـق كان طويـلًا هـذه المـرة، أشـعر ببطء كل شيء حـولي، الـكل يـدور في سـبات تـام؛ إلا رأسي، تـدور بأفـكار حالـت بينـي وبـين الفـرح بمعـاذ، صديقـي ورفيقـي الـذي قتلنـي انتظـاره، وعندمـا حـان وقـت لقائنا حالـت الدبابـير بيننـا، ألا لعنـة الله عـلى من اتخـذوا الوطـن سـترة لخيانتهم..

لم يكـن المـكان الـذي أوصلاني إليـه منكر ونكـير هو المكان الـذي طالما أتيتـه! ثمـة شيء ما يحدث لا أفقه تفسـيره.

أدخلانـى غرفـةً أشـبه بغرفـة الفئـران التـي كان يُخيفنـا بهـا جـدي، لا أعلـم مـاذا يحدث ولكني أوقـن تمامًا أن الطاولـة قد مالت بأكملهـا في الاتجاه الـذي يلتـف حوله جميـع أعدائـي، تركـوني ورحلوا، الظـلام هنا يخـبرني بأن النهـار قـد ضـل طريقه وفـرض الليـل سـلطته كاملةً.

يـومٌ، يومـان، شـهرٌ، وأنـا هنا في تلـك الغرفـة أبحث عـن ثقب خلف الباب أرى به معاذ، أشـعر بأنفاسـه كأنـه جالس بجوار جنـد إبليس يدعوهم إلى رؤيـة الوطـن مـن أعين محبيه لا مـن أعين إبليـس الأكبر.

تدهـورت حالتـي الصحيـة، لم يكترثوا لكـوني مريضًا ترافقنـي أدويتي حيثـما أذهـب، وبسـبب طول المدة التـي لم أتنـاول فيها الدواء؛ سـاءت حالتي الصحيـة ممـا دعاهم أن يقلوني إلى المشـفى..

ربـما أديـن بحيـاتي كلها لذلـك الطبيـب الذي ربـما لولاه لـكان الظلام قـد بـاء بالفـوز في كل المعـارك التـي خضناهـا سـويًا ولم يترك لي حتـى فرصة كـي أنـوي الحـرب. كان شـابًا أعتقـد أنـه لم يجاوز عقـده الثالث بعـد، دخل عـليّ مبتسـما وأنـا أكاد أراه كمـن يـرى مـن خلف زجـاجٍ أهلكه المطـر في ليلة شـتوية. قـال لي وهو يتفحـص عيني مبتسـما:

– حمدًا لله على سلامتك يا شيخ ياسين.

وجهه البشـوش قد سـاهم كثـيرًا في إنجـاح محاولتي البائسـة في مبادلته الابتسـام، كنـت أعلـم جيـدًا أيـن سـيذهب بي الحـال وإلى أيـن سـينتهي بي الطريـق في تلـك المشـفى، وذلـك مـا قـد دعاني لأطلـب منـه طلبًـا أعتقد أني كنـت لأنـدم كثـيرًا إذا مـا طلبته:

– يـا طبيـب .. أعلـم أن أيام بـصري معـدودة.. لو كان ذلـك صحيحًا أرجـوك أخـبرني.. فـإن لي ولـدًا لم أره منـذ وُلد.. جـزاك الله خيرًا يـا بني على رجـلٍ مثلي قـد توقفت آمـال حياتـه عليك.

لم تتبـدل ابتسـامته بـل زادت ليدنـو منـي ويربـت عـلى يـدي ثـم أمـاء برأسـه مخـبرًا إيـاي بأنـه سـينفذ مـا رجـوت منه..

لم يكـن الأمر سـهلًا خلال تلك الحراسـة المشـددة على غرفتي، شـعرت حينهـا كأني قـد تركـت وطنًـا يقـع مـن الـدور السـابع والسـتين لتتلقفـه يـد الصهاينـة، أو كأننـي اسـترددت ما وقع مـن الأول هذا لأذهب إليهم منكسًـا رأسي مسـالمًا، أو يجـوز أنهـم قـد أعتـبروني كمـن رأى مـا فعله هـذان الاثنان فـترك الوطـن معروضًـا في «فاترينةٍ» جاذبـة للأنظار كي لا يتعـب الباغيين في شرائه مـن النظـر إلى أعلى.

لا تزيغ عيني عن الباب منذ أن وعدني ذلك الشاب أن ينفذ لي ما طلبته منه فور ما تسنح الفرصة له بذلك. وفي يومٍ ما، أظنه كان كمثلث برمودة الذي جعل لي حياتين لا حياةً واحدة، كان كالبرزخ الذي فصل بين حربي الطويل مع الظلام ومجابهتي لظلمه وردعه عن رغبته في استيطاني، وبين فوزه.

كنت بالغرفةِ وحدي, لا لم أكن وحدي, كان معي أعز أصدقائي وأقربهم, أحاوره ويحاورني.. إنه الألم.

الألم, حينما ترى الأشياء بشكلٍ مختلف، حينما تدرك أن للكون حركة بطيئة لا يشعر بها الآخرون، فلتتأكد حينها أن الألم قد صنع منك آلةً تصدر صراخًا وعويلًا لم تعتده من قبل، وبرغم كونك صلبًا يهابك الوجع, فلقد صنع منك الألم آلة، وبكونك مختلف كالعادة، فأنت تصرخ في صمتٍ تام..

أشعر بالألم يزداد كلما أتنفس، كلما يتأكد أني أقاوم يزيد من قسوته، ولكوني محاربٌ قد مضى طيلة حياتة يبحث عن حربٍ تليق به, أصبحت أتقن جميع فنون القتال، أدرس خصمي قبل مواجهتنا المباشرة، أنتظر اللحظة التي أقول فيها إن الحرب خُدعة وها قد جاء دوري في الفوز. .

ها أنا الآن، أقف أمامك مبارزًا، لك أسلحتي فحدق النظر بها جيدًا، فربما تكون هي آخر ما ترى ..

أحمل في يدي شقوقًا قد هرمت من عظم ما عانيتُ من ألمٍ ووجعٍ, أعتقد أنك تتلمذت على أيديهم، وأحمل على وجهي تلك الابتسامة التي تمنع عنك أي لذة انتصارٍ من حربٍ أثق أنها لي في النهاية..

صديقـي الألم، لك تحياتي المبتسـمة، أسـعد بمجاورتـك لي, لا تظنني لا أريـدك!, حاشـا لله أن أمنـع أمـرًا قد قضـاه، فلتهنـأ في فترة بقائـك معي فإنك لـن تصـادف مثـلي مجددًا، أسـتقبلك بالـورد رغم دموعـي، فلتهنأ يـا صديقي فإنـك لـن تبقى معـي طويلًا ..

أخـبرني الطبيـب يومهـا في الصبـاح أن الطـرق كلهـا تـؤول إلى عمليـة جراحيـة خطـيرة في عينـي، ليـس هنـاك أي بدائـل متاحـة، ومـن الغريـب أيضًـا أنـه أخـبرني أن نسـبة نجـاح تلـك العمليـة لا تسـمح لقلبـي أن يتعلق برؤيـةٍ بعدهـا. لذلـك، لم يكن أمامنا سـوى المخاطـرة، على الطبيـب أن يغامر بوظيفتـه، وعـليّ أن أدعـو بـأن يجعـل الله بـين أيديهم سـدًا ومن خلفهم سـدًا ويُغشـيهم فـلا يبـصرون، وحدث.

بـدت لي رحمـة حينها كالعـذراء مريـم حينما أتـت لقومها تحمـل ولدها عـلى يديهـا، في قلبهـا نـور الله يطمئن الخوف الـذي قد أكل كل مـا بداخلها في فـترة غيـابي عنهـما، كان غطـاء معاذ أبيـض رأيته نـورًا قد عـمّ بالغرفـة فطرد الحـزن الـذي مكث معـي أنيسًـا منذ أن أحـضروني هنـا، أقبلت عليّ مبتسـمةً كأنهـا قـد أنجبت معاذ خـارج الغرفة وأتت بـه إلى لنفرح سـويًا فإننا لا نعرف كيـف يكون الفـرح إذا ما كان كل واحـدٍ بمفرده، وضعت شـفتيها على رأسي فهـدأ معهـما كل شيء، الحـرب ومناجـاة الوطن، السـجن والظـلام، هدأ كل شيء وكأننـي تناولـت حبـات القرنفل فأتخذت مسـارها عبر دمـي إلى مواطن الجـروح فسـكنتها وسـكّنتها، لقـد بـت الآن جاهـزًا للمحاربـة مجـددًا ومعي سـلاحي الأول والأخـير.. هي.

جلست بجواري وأمالت إلى بمعاذٍ فرأيته كشمس في نهار أغسطس، واضحًا تمامًا كأنما أراد الله أن أقول ما ينبغي عليّ قوله الآن:

- لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا.. الحمد لله.

أخذت أحفظ تفاصيل وجه معاذ كأني لن أراه ثانيةً، من يعلم الغيب إلا من يملك بيديه أمر بصري كله، ظللت هكذا كثيرًا حتى قاطعتني رحمة مازحة:

- من يراك الآن يقول بأنك اشتقت لمعاذٍ فقط! أتريد أن أمشي وأترككم سويًا ؟.

ضحكتُ كأنها قد أخبرتني ذلك ونحن ببيتنا نتسامر ليلًا، فلم يسعني حينها المزاح وتحدثت بجدية:

- قبل أن تأتوا الآن كان الجميع يتعجب من صبري وصمودي أمام كل هذا.. لا يعلمون يا رحمة أنكِ قد بنيتي جدارًا بداخلي بيني وبين الضعف والوهن.. وحدكِ فقط من تمتطين حصانًا قادرًا على أن يحملني على ظهره لنمر معًا إلى هناك فأفرغ ما أحمله من دموع على كتفيكِ ثم تعودين إليّ هنا مرة أخرى.. حيث القوة والصمود .. حيث أننى أشتاق إليكِ فور ما تعطيني ظهركِ وترحلين.

ردت بتلقائية شديدة:

- ما جاز لظهري أن يعلمكَ بتركِي إياك.. فأنا لا يحق لي أن أتركك أينما ذهبت.. أنتَ والدي وولدي وكل شيء يا ياسين.

لم يتسنى لي الرد عليها، فإذ بالطبيب يُقبل علينا فزعًا كأن قطاره أيضًا سينطلق منذ ساعتين، أخبرنا بضرورة رحيلهما الآن، تماسكتُ كأنه لم يخبرني أن علي أن أمسك السيف بذراعٍ قد أهلكتها الطعنات، فابتسمت وأشرت لهما بالرحيل فأمسكت هي بيديّ كأنها ترى الطعنات واضحةً بعينيها التي ترى ما لا يراه الآخرون بي حتى أنا وقالت:

- ستعود إلينا قريبًا يا عزيزي.. أخبرني ربي بذلك.

خرجا وتتبعتهما بعيني التي قد عادت إلى حالها البائس التي كانت عليه قبل أن يأتيا، لم يكن هناك أي عبارات شكرٍ تكفي لأقولها إلى ذلك الطبيب، فلقد سمح لي برؤية أسبابي في الحياة قبل أن أدخل في صراعي معها في الغد الباكر، وإن كنت سأدخل العملية بصمود شيخٍ أهلكته لحيته فأنا الآن سأدخلها بصمود محاربةٍ تفطن الطريق جيدًا إلى الفوز، ومن حسن الحظ أنها قد أتت معها للمرة الأولى بولدها الذي يبدو أنه ورث فنون الحرب من أمهِ وجاهزٌ الآن لقيادة الجيوش معها.

أتى النوم بطيئًا كأنه يعلم أني أنتظره، الغد مخيف جدًا ولكني لا أعرف الطريق إلى العودة، وإذا عرفت الطريق فلن يتغير شيء، ما الماضي إلا أنه كان حاضرًا ومستقبلًا في يوم من الأيام، أصبحت أرى نهاية كل ما مهدته الحياة لي منذ ولدت، أرى ذلك الرجل يقف في نهاية الطريق فاتحًا ذراعيه لي وأراني أسير نحوه في هدوءٍ تام حتى نمت.

أتـى الغـد يؤكـد صحـة مـا رأتـه بصـيرتي القويـة، أسـمع كل شيء بوضوح شـديد، أسـمع صـوت الطبيب في آخـر الغرفة يرجو ويقـول أتركوه فلـن يسـبب لكـم ضررًا بعـد الآن فوافقـوا.

لطالمـا أحببـت اللـون الأسـود منـذ أن بـدأت في تمييـز الألـوان عـن بعضهـا، لطالمـا رأيتـه يتربع على عرشـهم جميعًـا، هادئًا بسـيطًا كأنـه البحر في صفـوه، كأنـه السـماء في احتضانهـا لنجومهـا، كأنه الليـل، هو الليـل حقًا، ولم أكـن أعلـم أن حبـي للأسـود سـيجعله يحبني أيضًـا فيـأتي بنظارةٍ مـن أولاده لترافـق عصـاي طيلـة حيـاتي المتبقيـة، لم أكـن أُدرك ولا لحظـة واحـدة الشـبه الواضـح بـين الأسـود والظـلام والحـزن، كنـت أميـزه عنهـما وأحبـه ولكني اكتشـفت الآن أنهـم أبنـاؤه الكبار، لا خـزي على محاربٍ حارب بـكل ما أوتي مـن قـوة وخسر في النهايـة، حاربت المـرض في معـاركٍ كثـيرة، هزمنـى تارةً وهزمتـه تـارات، نـال منـي ونلـت منـه، علمنـي وعلمتـه، ولكن الجسـد إذا وهـن بفعـل السـنين فـلا عيـب عـلى الاستسـلام ولكنـي لم أتطـرق لـه يومًا، أنهيـت حـربي وأنـا واقف في الميـدان لا شيء معي سـوى قدمـيَّ الاثنين اللتين تُبقيـاني واقفًـا إلى الآن، رحمـة ومعـاذ، ولكـن يحتـم عـليّ الرجـوع الآن فمـن يعلـم! يجـوز أن أدخـل حربًـا أخـرى مـع شيء آخر فيجـب أن أكون مسـتعد مـن الآن، ولكـن قبـل أن أغـادر الميدان عـليّ أن أعلن فـوزه، لقد فـاز الظلام في النهاية..

هو..

تطـرق الخـوف إلى قلبـي ولكـن قدمـي واصلـت الصعود، دنـوت من الطابـق الخامـس عـلى الرغـم مـن أن عقـلي قـد تركنـي بالأسـفل ولم يصعد، تركـت الزمـام لقلبـي طمعًـا في نيـل الحريـة، ظننت حينهـا أن السـجن الذي قـد وضعنـي عقلي بـه قد أوشـك أن يتحـول إلى بسـتان زهـور وورد، وقفت بمحـاذاة البـاب ووضعـت يدي عـلى الجرس وضغطـت ولم يكن بـرأسي أي شيء لأقولـه عندمـا يفتـح الباب..

وبرغـم أن كل الاحتـمالات التـي قد بنيتهـا بمخيلتي لم يصيـب أحدها الصـواب! لم أكـن أتخيـل أبـدًا أن فاتحة البـاب سـتكون حبيبة، كانـت كالبدر في تمامـه وكنـتُ كمهاجـرٍ يسـافر في منتصـف الشـهر دائـمًا فلم يعـرف للقمر شـكلًا سـوى الهـلال، دقيقـة صمت تخللتنـا وهي تنظـر إليَّ في دهشـة وبعض ملامـح الغضـب الـذي ذكـرني بـكلام صديقتهـا، وقـف الزمان عنـدي حقًا فلـم أكن أشـعر بشيء ولا أهتم بما سـيحدث أيضًـا، تيقنت حينهـا أني أحبها، فأنـا لم أكـن أعلـم عـن الحـب شـيئًا ولكنـه لا يحتـاج لتعليـم أو دراسـة، فهو هكـذا يؤمـن باللامنطقيـة وكل مـا نفـره العقـل واستأنسـه القلـب، فعندمـا يتطـرق الحـب إلى قلبـك ستشـعر بـأن الزمـن والوقـت ليـس لهـما أي أهميـة، فقـد يصبحـان ناتجـين لعمليـة حسـابية أحـد طرفيهـا صفـر، النتيجـة واحدة إذن فـلا داعـي للمكابـرة، عليـك بالاعـتراف فقـد خـاب مـن كتـم حبًـا في صـدره ولم يبديه..

قاطعتْ شرودي المبهم بحدة:

- ماذا أتى بك إلى هنا؟! أجننت!

رددت بحدة مماثلة:

- وماذا قد عساني أن أفعل؟! لم تأتي الجامعة منذ شهرين؟ وقد بحثت عنكِ في كل مكان ولم أجدك!

تضاعفت حدتها:

- ولماذا كل هذا من الأصل؟ لماذا تبحث عني؟

راق لي الهدوء حينها فقلت:

- ستعلمين كل شيء في الوقت المناسب.

هدأت هي الأخرى وبدا صوتها يميل إلى الرجاء وقالت:

- لا أريد أن أعلم أي شيء.. أرجوك لا تفعل.. أرجوك.

لم أفهم شيئًا من حديثها، ومما تخاف، وماذا ترجو، فصمتُ محاولًا إدراك ما تريد أن توصلني إياه فأردفتْ وهي تلتفت إلى داخل الشقة:

- إذا خرج أبي فلن يكون الأمر جيدًا لي ولك.. ارحل أرجوك.

دفعني رجاؤها وخوفها لموافقتي ولكني خفت أيضًا أن لا أراها ثانية فاندفعت قائلًا:

- سأرحل.. ولكن عديني أن تأتي غدًا للجامعة.

أمـاءت برأسـها موافقـةً وأغلقـتْ البـاب، كنـت في الطابـق الخامـس وأسـمع سـباب عقلي من الـدور الأرضي، لم أكن أسـمعه جيـدًا ولكني أعتقد أني قـد سـمعت اسـم «ياسـين» أكثر مـن مـرة! لا أعلـم إلى الآن لمـاذا لم أخبر والـدي وصديقـي الأوحـد عن حبيبـة ولكن ثمة شـعور بداخـلي يمنعني من ذلـك ولا أعلـم لـه سـبب، لـذا قـررت أن أتحـدث معـه قريبًا ولكنـي أجلت ذلـك حينـما تـأتي هـي للجامعـة ويتضـح لي كل شيء، فأنـا لا أفهـم ما يحدث لـذا وجب عـليّ الانتظـار لأفهـم كل شيء بوضـوح تام.

التقطـت عقـلي مـن الشـارع لنتسـكع قليـلًا في مكانـنـا المفضـل.. وسـط القاهـرة. هنـا حيـث أنتمـي، أنتمـي للشـوارع والأرصفـة، للمقاهي والسـقيع، للراديـو وصـوت أم كلثـوم، لـكل شيء يمتـد آخـره لي، فهنـا أكتـب جميـع مقـالاتي وقصائـدي، هنـا يجـد كل مبـدعٍ الطريـق الـذي يرنـو إليـه خيالـه، وإذا كانـت مـصر كلهـا صندوقًـا فهـذا هـو حرفيًـا «خـارج الصنـدوق»..

غـادرت حبيبـة شـقتها وأتـت إلى خيـالي تسـكن فيـه، كانـت تمـشي معـي وتمسـك بيـديّ، شـعرت حينهـا أن «محمـود درويـش» قـد تـدلى مـن بلكونتـه المطلـة عـلى ميـدان «طلعـت حـرب»، يحتـسي فنجانـه المعتـاد مـن البـن البرازيـلي الأصيـل، يرتـدي قبعتـه اليونانيـة القديمـة ثـم وقـف يحـادث جماهـيره العريضـة الذيـن يتمثلـون فيّ، وفي نفـس اللحظـة التـي صـدرت مـن غرفـة «زيـاد سـحاب» ألحـان عـودٍ جعلتنـى أتسـمر في مـكاني، صـدح درويـش:

انتظرهـا، بـذوقِ الأمير الرفيـع البديع، انتظرها،بسـبعِ وسـائد محشُـوَّةٍ بالسـحابِ الخفيـفِ، انتظرهـا، بنـار البخور النسـائيِّ مـلءَ المكانِ، انتظرها، ولا تتعجَـل، فـإن أقبلَـتْ بعد موعدهـا، فانتظرها، وإن أقبلـتْ قبل موعدها، فانتظرها..

أيقنـت رسـالته وآمنـت بهـا، فهمـت فحـوى رسـالته المختبئـة في تلك اللوحـة السرياليـة العظيمـة، فغـادرت وعقـلي قد أخذ مُسكنًا ليسـكت عني بعـض الوقـت فإنه يعشـق درويش هـو الآخر، ولكننـا لم نعِ وقتها أن لرسـالة درويـش بقيـة لم يقولهـا، يجـوز أني لـو كنـت سـمعتها لتغير كل شيء ولكنـه القـدر، القـدر الـذي أخترنـاه بإرادتنـا دون أن نعلم..

❊❊❊❊❊

في اليـوم التـالي، ظللت جالسًـا طيلـة اليوم أمام بـاب الكليـة متجاهلًا كل شيء، محـاضراتي واجتـماع اتحاد الطلبـة ومهاتفتهـم لي، تجاهلت كل شيء، أنتظرهـا فقط..

حتـى أتـت, وأتـى معهـا الربيـع بأزهـاره ووروده, كانـت كالفراشـة, لم تـترك حقـلًا إلا واستنشـقت عبيره, كنـت محظوظًا حقًـا وأنـا أُرى كيف يُحول الرحيـق إلى عسـل, لا بـل كانت خمـرًا, شربتها فسـكَّرتني وسـكَّرتني, هزمتني دون أن تُلقـي بـالًا بذلـك!, ولأول مـرة يكون المهزوم سـعيدًا, لم أكن سـعيدًا فحسـب, بل كنـت السـعيد الوحيـد فى الدنيا..

اقتربت مني وهي تبتسم, لم تقل شيئًا فبادرت أنا:

- جيدٌ أنكِ أتيتِ.. وإلا كنتُ سآتي أنا إلى بيتكم ثانيةً.

تحولت بسمتها إلى ضحكة فزاد جمالها جمالًا!, وقالت وهي تزيحُ شعرها الذي تدلى سِرقةً إلى عينيها:

- المرةُ الثانية سيفتح لكَ أبي.. وبعدها أعتقد أنك لن ترى مجددًا بعينك تلك.

ضحكتُ, ومن المرات القليلة التى أضحك فيها حتى بدت نواجزي ويعلو صوتي هكذا.

مِن يومها, وقد أختلف كل شيء, وبرغم اختلافنا فى الطِباع والتفكير, فلقد كنتُ أسعى دائمًا إلى مشاركتها فيما تحب فعله, ذهبت إلى عالمها الذي أراه سطحيًا, لا يشبهني ولا أُشبهه, ولكني أحببتها, أحببتها حقًا, رغم اني لم أرَ منها ذلك, فكانت تبتعد كلما أقتربت, لا تحب عالمي ولا تفكر حتى مجرد التفكير فى الذهاب, لا تقرأ, تشعرُ قليلًا, لا!لا تشعرُ أصلًا..

أسمعتها لـ«جاهدة» ولم تُحبها, أعطيتها كتبًا لـ«رضوى عاشور» ولم تقرأها, تركت لها يمَّي فلم تشرب ومت عطشانًا, فعلتُ كل ما بوسعي لتشعر, وشعرتْ قليلًا, لا!لم تشعر أصلًا..

فاض الكيل بي ولم يعد لدي ما أفعله, هناك شيء لا أفهمه, وليس هناك أسوأ من أن يجهل الرجل إن كانت تحبه امرأته أم لا فيسألها, فلا تجيب..

لـذا؛ لجـأتُ لصديقتهـا تلـك, ربـما لتجيب عـن تلـك الأسـئلة التى لا أعلـم لهـا إجابة,

وربما لترشدني إلى طريقٍ أجد حبيبة فيه فى النهاية, ولكن لم يحدث ذلك, لم أفهم منها شيئًا ولم تعطني إجابةً صريحة, لمحتُ تحذيراتها السابقة بشكلٍ أقوى هذه المرة, ولكني رأيت أيضًا حثها القوى لي على الاستمرار في محاولة الوصول إليها, لم أفهم شيئًا منها, في ذلك اليوم؛ هاتفتُ حبيبة, صرحت لها بحبي وبكل شيء, كانت علاقتنا تحت مسمى الصداقةُ إلى أن نسميها باسم آخر, ولكني كنت أعلم بأن الحب واضحًا في عيني ولا تخطئ الأنثى فى قراءة ذلك أبدًا, ولكنها تعمدتْ أن تتظاهر بصدمتها ولم تُجب, فسألتها عن شعورها أيضًا ولم تُجب, كم هو بائس أن تنتظر الأبكم أن يتحدث..

*****

في غـدِ ذلـك اليـوم, جلسـتُ في نفـس المـكان الـذي أنتظرتهـا فيـه أولَ مـرة, ولكنهـا لم تكـن كأول مـرةٍ أبـدًا..

لم تـأتي بمفردهـا هـذه المـرة, بـل أتـت بصحبـة صديقتهـا تلـك, رأيتهـما تأتيـانِ مـن بعيـد، هـي وصديقتهـا، تتحـاوران وهمـا تنظـران إليَّ وملامـح حبيبـة لاتنبـؤ بخـير عكـس صديقتهـا التـي كانـت تبتسـم فـور مـا تلاقـت أعيننـا، دنتـا منـي وسـلمت عـليّ صديقتهـا ثـم ذهبـت وهـي تنظـر إلى حبيبـة كأنهـا تريـد أن تؤكـد عـلى مـا اتفقتـا عليـه، أقتربـت منـي حبيبـة وهـي تنظـر في جميـع الزوايـا عـدا زاويتـي!،

قابلتُ أنـماط النسـاء جميعهـن ولكـن نمطهـا لم آلفـه مـن قبـل، ويبـدو أن ذلـك هو حبلهـا الذي رأيتـه ثعبانًا فسـحر عينـي وأصبحت لا أرى سـواها، وتغيبت لباقتي المعهـودة عني في ذلـك اليوم فـصرت أبكمَ، لم يكـن هناك ما أقولـه فعينـي تفضحـاني وعينها جريـدةُ تـروج الإشـاعات جيدًا..

لم يلبـث الصمـت طويـلًا حتـى قالـت وهـي تشـير إلى بنتـين كانتـا تنظـران إلينـا:

- هؤلاء البنات ينظرن إليك.. يبدو أنهن يعرفنك.

لم أنظر إليهن وأومئت لها أن تتجاهلهن لتردف هي:

- أريد أن أتحدث معك.

رددت بتلقائية:

- وأنا أريد أن أسمع.

مشـينا سـويًا متجهين إلى «كافيه الكليـة» وكأننا تحولنا فجـأةً إلى نجمين هوليووديـين وتحولـت أعـين الجميـع إلى كامـيرات، لطالـما كرهـتُ الأضواء ولطالـما بحثَـتْ عنـي، ولكن اليـوم لا أكترث بذلـك، فأنـا لا أرى غيرها مهما اشـتد الزحـام وكثـرت الطرق،جلسـنا وطـال الصمـت قليـلًا هـذه المـرة ثم تحدثَـتْ لتثـور البراكـين التي خملت لسـنوات طويلـة، أخبرتني بأشـياءٍ لم أكن يومًـا أرجو سـماعها ولا بمحـض الصدفة، بانـت لي تحذيـرات صديقتها الآن جليـةً كالشـمس في وضح النهـار، أتذكر مـا قالته كأنـه «جرامافـون» لا يمل مـن التكرار حتـى الآن..

كانت هادئة جدًا وقالت:

- معـاذ.. لسـت أنـا تلك التـي تبحث عنهـا.. لا أفهم سر الـذي تفعله ولكنـى لا أريـد أن أعـرف.. هناك أشـياء لا ينبغي لنـا أن نعلمها..

صمتت برهة وأردفت:

- معاذ.. لست صالحة للحب مرة أخرى.

صُدمت مما قالت ولكنها أكملت باكيةً:

- أنـا أحبـه هـو.. لا أملك مكان لأحـد غـيره.. وبرغم خيانتـه وكذبه فأنـا أحبـه.. وبرغم أنـه تركني ما زلت أحبـه.. أحب آسر.. ليـس بيدي شيء سـوى أن أحبه.. والله ليـس بيدي شيء.

توقـف الزمـن للحظاتٍ مـرت دهرًا، بكاؤهـا ونظرات النـاس وحزني وحدهـم مـن واصلوا السـير، وجـدت نفسي بتلقائيـة بالغة أبتسـم وأمد يدي لهـا بمناديـل ورقيةٍ فأخذتهـا وهي لا تنظـر إليَّ وأردفت:

- ليـس لـك ذنـب في شيء.. وأعـرف أن البنـات كلهـن معجبات بك ولهـن حـق.. وأنا لـن أجـد لي صديقًـا مثلك مهـما بحثـت.. أتوافق؟

هنـا، أتذكـر أننـى اعتدلـت في جلسـتي ليعـود معـاذ إلى أدراجـه مـرة أخـرى، بدأت في اسـتيعاب كل شيء كأني قد مسـني الشـيطان منـذ أن رأيتها وهـا قـد اغتسـلت بـماء مقـروء عليـه، مـددت يـدي لعقـلي والتقطتـه ليعـود مكانـه وتعـود معـه الأمـور إلى نصابهـا، رن هاتفي في تلـك اللحظـة فتناولته مبتسـمًا ورددت:

- في الطريق إليكم.

كانت تنتظر إجابتي على طلبها، لا أعلم منطقية طلبها هذا ومن أين أتت بقدرتها على طلبه!، أي جزَّارة تلك التي تمسك السكين لضحيتها ظاهرة إياه مبتسمةً!، وبرغم كل ذلك وجدتني أزيد من بسمتي وأقول:

- موافق.

تركتها واتخذت طريقي تجاه مكان اجتماعهم، السير بجانبها يختلف تمامًا عن السير وحدي، الأضواء التي اشتهتني منذ دقائق نفرتني الآن، وكلما أدنو من الوصول اقترب من المكان الذي تركتها فيه، لا عيب عليّ أن أقول ذلك، فلقد تركْتني هناك أنتظر «سيناريو» آخر لما حدث، وبرغم قوتي وصمودي الآن فأنا ما زلت هناك طفلًا يمقت من تريد فطامه غصبًا، ما زلت هناك أنتظر قولها بأنني من انتظرته هي طوال حياتها وتحمد الله سرًا أنني جالس أمامها الآن، هناك خطأ ما قد حدث وعليّ وحدي تحمله، يبدو أن ذلك هو ميثاقُ عائلتنا المباركة، المعاقبة على ذنب لم تقترفه، ولكن ما أن وصلت إلى أعتاب مكان اجتماع اتحاد الطلبة الذي أرأسه، حتى بدأت في التقاط أنفاسي والبحث عن

هوية القائد المثقف اللبق الذي دهسته برجلها دون أن تدري..

- السلام عليكم يا رفاق.. أعتذر عن تأخيري أولًا.. وثانيًا اشتقت إليكم جميعًا.

تبدل ضجرهم وانزعاجهم مني إلى بسماتٍ لطيفة ليرد أحدهم:

– ونحن اشتقنا إليك يا قائد.. لدينا أعمالًا كثيرة مؤجلة وننتظر رأيك فيها.

وقالت أخرى:

– عدد المجلة الأسبوعية سيصدر غدًا يا قائد ولم تسلمني مقالتك بعد!.

رددت وأنا أخرج ورقةً من حقيبتي:

– هـذا صحيـح.. أعتـذر لذلـك ولكـن المقـال هـذه المـرة كان يحتـاج لوقـتٍ طويـل.. سـينال إعجابكـم بـإذن الله.

قالت إحداهن التي كانت تجلس حاملةً على فخذيها «حاسبًا آليًا»:

– عن ماذا يا معاذ.

لا يجـرؤ أحـد عـلى منـاداتي باسـمي هنـا ولكنهـا الوحيـدة التـي تفعل ذلـك دون أن ينظـر لهـا أحـد حتـى أنـا، وقبـل أن أرد عليهـا أردفـت هـي:

– أظنها حبيبتك.

اندهش الجميع منها ونظروا لها لتكمل ضاحكةً:

– لا تندهشـوا.. فلـو كانت فلسـطين أنثـى لتزوجها معـاذ.. إنها حبيبته التـي يكتـب لها دون أن ينتظـر منها رد.

ضحكـوا هـم الآخـرون ولكنـي لم أضحـك، أوقـن تمامًـا مـا تعنيـه في كلامهـا، ونظراتهـا تتفحصنـي من رأسي حتـى أخمص قدمي، ولكـي تؤكد لي ذلـك أكملـت وهي تبتسـم:

- نريد أن نسمعه بصوتك.. نحب ذلك.

أيدهـا الجميـع في ذلـك وأنـا مـا زلـت أنظـر لهـا في صمـت تـام، تدور بـين أعيننـا أحاديـث كثيرة لا يسـمعونها، رفعَـت حاجبيهـا لتنبهنـي ففتحتُ الورقـة وبـدأت في القراءة:

«بالأمـس روادني حلـم تمنيـت لو أنه حقيقـة، فلقـد أسرى بي إلى أرض المعـاد، أرض الرب.

هنـا، وعـد الله إبراهيـم وعاهـده عـلى أن تكـون هـذه الأرض لنسـله، فهـي أرض المعـاد التـي سـيعودون تحــت قيادة ~~الماشيَّح~~ «المسـيح المخلص»، أي أنهـا الأرض التـي سـتشهد نهايـة التاريـخ، هكـذا قـال اليهود.

ولكنـي لم أرى منهـم أحـدًا!، فلقـد طفـت فلسـطين كلهـا ولم أرهـم، بحثـت عنهـم تحـت الـتراب ولم أجدهـم أيضًـا، أين شـعب الله المختـار؟! لا أرى سـوى شـجر الزيتـون والأطفـال تحتـه يعـصرون ويأكلـون كمواطنـين الجنـة، تتبعـت أسراب الطيـور حتـى وصلـت إلى سـاحة القـدس، الجميـع جالـس ومتأهـبُ لحـدث عظيـم، حتـى ظهـر أمامنـا رجـلان كـبّر الأقـصى تحيـةً لهـم..

بدأ أصغرهما سنًا بالحديث قائلًا:

مرَرنـا عـلى دارِ الحبيـب فرَدَّنـا.. عنِ الـدارِ قانـون الأعادي وسـورُها،
فَقُلْـتُ لنفـسي رُبـما هِـيَ نِعْمَـةٌ.. فماذا تَـرَى في القـدسِ حـينَ تَزُورُها؟

رد عليه أكبرهما سنًا وقال:

في القدس، أَعني داخلَ السُّور القديمِ.. أَسيرُ من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ بلا ذكرى
تُصوِّبُني، فإن الأنبياءَ هناك يقتسمون تاريخَ المقدَّس.. يصعدون إلى السماء.

ثار الصغير قائلًا:

في القـدسِ شرطـيٌ مـن الأحبـاشِ يُغْلِـقُ شَـارِعًا في السـوقِ، رشَّـاشٌ
عـلى مسـتوطنٍ لم يبلـغِ العشريـنَ.

ثار الكبير أيضًا وقال:

أَمـشي كأنِّي واحـدٌ غـيْري.. وجُرْحـي وَرْدَةٌ.. بيضـاءُ إنجيليَّـةٌ،
ويـدايَ مثـل حمامتَـيْنِ

على الصليب تُحلِّقان وتحملان الأرضَ.

صمت الصغير برهةً ليكمل الكبير:

لا أمـشي.. أَطـيرُ.. أَصـيرُ غَـيْري في التجـلِّي. لا مـكانَ و لا زمـان
فمـن أَنـا؟

أَنا لا أنا في حضرة المعراج.

قام الصغير وأمسك بيديه علم فلسطين وقال بأعلى صوته:

«في القـدس تنتظـمُ القبـورُ، كأنهـنَّ سـطورُ تاريـخِ المدينـةِ والكتـابُ ترابُهـا.. الـكل مـرُّوا مـن هُنـا.. فالقـدسُ تقبـلُ مـن أتاهـا كافـرًا أو مؤمنًا.. أُمـرر بهـا وأقرأ شـواهدَها بـكلِّ لغـاتِ أهـلِ الأرضِ.. فيها الزنـجُ والإفرنجُ والقِفْجَـاقُ والصِّقْـلابُ والبُشْـنَاقُ والتاتـارُ والأتـراكُ، أهـلُ الله والهـلاك، والفقـراءُ والملاك، والفجـارُ والنسـاكُ.. فيهـا كلُّ مـن وطـئَ الثَّـرى.

ثـار الجميـع لثورته وثـارت معهم دموعـي لأجد ذلـك الصغير يقترب منـي ويقول وهو يشـير إليّ:

لا تبـكِ عينُـكَ أيها المنسيُّ من متنِ الكتـابْ.. لا تبكِ عينُكَ أيهـا العَرَبِيُّ واعلـمْ أنَّـهُ.. في القدسِ من في القدسِ لكـنْ.. لا أَرَى في القدسِ إلا أَنْتْ.

لا يمكننـي وصـف شـعوري وقتهـا، كنـت طائـرًا حقًـا، شـاهدت «محمـود درويـش» و«تميم البرغوثـي» يقولان شـعرًا في فلسـطين أمامي! ولا أثـر ليهـودي ولا لامـرأة تبكـي، لا أثـر سـوى لنـا، نحـن الملاك الشرعيـون لـلأرض، ندافـع عنهـا حتـى تدافـع هـي عنـا، كان حلـمًا رائعًـا جـدًا وكنت في غايـة النشـوة والسـعادة حتى نسـيت أنـى أحلـم، ولكن بائـع الخضروات الـذي مـر في الصبـاح الباكـر تحت بيتـي وأيقظنـي لم ينسَ ذلـك، وصوت أبي وهـو يسـمع في التلفاز عن الحصـار وزحف الاسـتيطان لم ينسَ ذلـك أيضًا..

فلسطين.. ستعودي إلينا يا عزيزتي عما قريب.

صفـق الجميع بينـما أنا أخذتنـي دموعها التي سـقطت رغـمًا عنها، فهي تحـب فلسـطين كـما أحبهـا، وددت أن أذهـب لهـا وأتحـدث معهـا في اللاشيء كعادتنـا ولكننـي خفـت أن تـدرك حـزني على مـا حدث منـذ قليـل، ولم يترك لي هاتفـي فرصـة الاختيـار هو الأخـر فلقد رن جرسـه في هذا الوقـت ليظهر اسـم والـدي فلملمـت حقيبتـي وأخبرتهم أني سـآتي غـدًا وأمسـكت الهاتف ودار حديثنـا كالتالي:

- السلام عليك يا شيخ ياسين

- وعليك السلام يا بني.. متى ستأتي؟

- لقـد خرجـت مـن الجامعـة الآن وفي الطريـق إلى البيـت.. أتريـدون منـي شـيئًا أحـضره لكم؟

- لا يا بني.. تَعالَ بخير فحسب.

- حسنًا.. مع السلامة.

*****

قليوب

مسقط رأس والدي، ومسقط رأسي أيضًا جميع من أَحب، أنا وأُمته، كما يجب أن يقول عن والدتي في غيابها، أما في حضورها فهي رحمة، أُناديها رحمة في معظم الأوقات، ولكن أحيانًا ما يحتم الموقف أن أناديها بـ«أمي»، عندما تهزني بيديها برفقٍ لأستيقظ، فأجدني أبتسم دون وعيٍ وأقول:

«صباح الخير يا أمي»

وكذلك عندما يشبه عليّ بعض أفراد عائلتنا التي رأيتهم لمرةٍ أو مرتين في حياتي، يقولون «أأنت ابن رحمة؟» نظرًا للشبه الكبير بيننا، فأرد مؤكدًا لهم» نعم إنها أمي»، ولكن إذا تحدثت عنها فلن أكن منصفًا أبدًا، هي الموطن والسند وكل شيء، يتعجب البعض من حب أبي لأمي ولكني لا أتعجب من ذلك، فهي دائمًا ما تقنعنا بأنها تكفي، فهي الحبيبة والصديقة والأم والأخت والبنت وكل ما جاز لحواء أن تكون، هي رحمةُ وليس هناك رحمةٌ سواها..

أما عن ياسين فهو صديقي الأول والدائم، مستشاري الناصح الحكيم، منبع ثقافتي وقِبلةُ طريقي، هو الذي ما أن رآني أخطئ يقومني بطريقة لا أخطئ مثلها ثانيةً، فلقد تعلمت منه كيف يكون الأب صديق، والصديق أب، تعلمت منه أشياء كثيرة، أهمها هو أنه يجوز أنك قد تفعل أشياء عظيمة، ولكن لا أعظم من أن تكون إنسانًا حقًا، فوالدي هو الإنسان الأول الذي عرفت منه كيف تكون الإنسانية..

كان يجلس على الأريكة أمام التلفاز يسمع الأخبار كعادته، انتبه لصوت الباب وأنا أفتحه فذهبت إليه وقبلت يده وجلست بجواره ليقول:

- كيف الأمور معك يا بُني؟ هل كل شيء بخير؟

ربتُ على يده وأجبته:

- الحمد لله يا أبي كل شيء بخير.

سكتُ قليلًا وأردفت:

- أريد أن أخبرك بشيء.

انتبه لي وتحسس «الريموت» وأغلق التلفاز قائلًا:

- قل يا ولدي أنا أسمعك.

طفت بعيني جميع أرجاء البيت وقلت:

- أين أمي يا أبي لا أراها تستقبلني كالعادة؟!

فأجاب:

- نائمة.. ولكنها أخبرتني أن أوقظها عندما تأتي لتجهز لك الطعام.

- اتركها نائمة فلست جائعًا.

ظهرت ملامح القلق عليه ليسألني:

- ماذا بك يا بُني أخبرني.

تنهدتُ قليلًا ليدور بيننا الحديث كالتالي:

- لا أعلــم.. ولا أدري أأنــا عــلى صــوابٍ أم خطــأ.. ولكــن يبــدو يــا أبي أننــي أحببــت.

ابتسم ولم يعقب، فأردفت:

- هــذه المـرة الأولى يـا أبي التـي أتـرك فيهـا الزمـام لقلبـي ولا أسـمع لعقـلي.. كنـت مقيـدًا بقيودٍ مـن الفـل والياسـمين.. لم تكن لدي القـدرة على السـيطرة عـلى كل مـا أشـعر بـه.. أيقلـب كيـاني وتتغـير مبادئـى رأسًـا عـلى عقـبٍ لأجل امـرأةٍ يـا أبي؟!.

صمتُ ليقول هو:

- وهل أخبرتها؟

أعلـم أنه لـن يرى ابتسـامتي المنكسرة تلك التي ابتسـمتها بعد سـؤاله هـذا ولكنـي موقـن تمامًا أنه قد شـعر بهـا، فأجبتـه قائلًا:

- أجـل.. ولكـن.. تعلـم يـا أبي!.. دائـمًا مـا كنـت أنظـر بسـفاهةٍ لأصدقائـي هـؤلاء الذيـن يبكـون بالليـل وينحبـون على فـراق مـن يحبون.. كنـت مخطئًـا.. الأمـر ليـس بهـذه السـهولة يـا أبي على الإطـلاق.. أشـعر بأن هنـاك سـكينًا بصـدري يقطـع قلبـي إربًـا.. أشـعر بحـزنٍ لا آخـر لـه يـا أبي.

ضمنـي إليـه كعادتـه، وبرغـم أن احتضـان الأب لابنـه غـير مألوف في عهدنـا الشرقـي، ولكنـه عـودني على ذلـك منذ صغـري، فـكان صـدره دائمًا هـو مـلاذي ومـأواي الوحيد، أتحـدث معـه في كل شيء ولا أخجل منـه أبدًا، فكنـت قدميـه التـي يمشي بهـما ويذهـب إلى المسـجد، وعينيـه التـي تدله على الطريـق، ويديـه التـي تُبعد عنه العثـرات والأحجـار، كنت له دليـلًا وكان لي نبيًـا، كنت لـه طريقًـا وكان لي النهاية..

- يـا بُنـي.. الحـب ليـس حرامًـا ولا ذنبًـا.. ولكنـه إن كان سـببًا في الهـلاك فيجـب علينـا اجتنابـه.. منـذ طفولتـك وأنـا أنتظـر ذلـك اليـوم الـذي تـأتي فيـه وتخـبرني أنـك تحـب إحداهــن.. ونحـن أصدقـاء كـما تعودنـا.. والصداقـة تحتـم علـيّ أن أعلمـك بـأن هنـاك خطـأ ويجـب عليـك تداركـه.. ولا تبتـأس مـن حالـك يـا صديقـي فنحـن رجـال لا يفطـر قلوبنا شـيئًا مهـما عظمـت قوتـه.. أليـس كذلـك؟!.

ابتسـمت لـه مـدركًا مـا يعنيـه، قبلـت يديـه ثـم أويـت إلى الفـراش، أمسـكت بالهاتـف لأرى رسـائل نصيـة مـن الاتحـاد يذكرونـني بسـفرنا المؤجـل إلى أسـوان، أرسـلت لهـم رسـائل تفيدهـم بتحديـد ميعـاد السـفر في نهايـة الأسـبوع، خلـدت للنـوم بعـد فـترةٍ طويلـة مـن التفكـير والوجـع الـذي أجهـل مصـدره، نعـم أنـا قـويٌ جـدًا وكلام والـدي لـه مفعـول السـحر في قـراراتي، فلقـد اسـتوعبته جيـدًا وفهمتـه وفهمـه عقـلي أيضًـا ولكـن قلبـي يأبـى إلا أن يسـتمع لصوتـه فقـط، وبعـد التفكـير الطويـل في كيـف سأنسـاها وجدتنـي أنتظـر الغـد لأراهـا حتـى بمحـض الصداقـة التـي وضعـت حبـي بهـا تحـت الإقامـة الجبريـة..

أتـى الغـد ومـا زالـت بي عوالـق مـن الأمـس لم تذهـب معـه، ذهبـتُ للجامعــة وبــرأسي هــدفٌ واحــد، لابــد أن أمحــو الشــهرين الماضيــين مــن ذاكـرتي، لقـد اقتربـت امتحانـات نهايـة العـام الـدراسي ولا بـد لي أن أصـب تركيـزي كلـه تجـاه الدراسـة فلـم يتبـق إلا القليـل..

وبعـد أن انتهيـت مـن المحـاضرات جميعها ونويـت الذهـاب إلى المكان الـذي نجتمـع فيـه، وجدت صديقـة حبيبة تلك؛ تقـف في نفس المـكان الذي كنـت انتظرهمـا فيـه، يبـدو أنها كانـت تنتظر أحـدًا، توقعـت أنها تنتظـر حبيبة ولكـن خاب توقعـي، فلقـد كانت تنتظـرني أنا..

مررت بجانبها فأوقفتني قائلةً:

- أريد أن أتحدث معك بشأن أمر مهم.

ليـس بينـي وبينهـا أمـر قد يكـون مهمًا سـوى حبيبـة، لذا أمسـك عقلي بلجامـي وأمـرني بـأن أخبرهـا بـأني متعجلٌ ولـدي موعـدٌ مهم باتحـاد الطلبة ولكنهـا أصرت قائلةً:

- لن آخذ من وقتك الكثير.. فهو أمرٌ مهم جدًا.

فكـرت لثـوانٍ، وجـدت أنه ليس مـن اللياقـة أن تترجاني بهـذه الطريقة ولا أسـمعها، ذهبـت معهـا وجلسـنا بمقربـة مـن المـكان الـذي يجتمـع فيـه الاتحـاد لكـي لا أتأخر عليهـم، ومـن دون أن تفكر قالت هي فور ما جلسـنا:

– حذرتـك مـن قبـل ولكنـك لم تسـمعني.. كنـت أعلـم أن ذلـك سـيحدث.

حافظتُ على هدوئي رغم ضيقي مما تقول وقلت:

– وبما أنك تعلمين أنها تحب أحدًا آخر لماذا لم تخبريني؟!!.

قالت:

– هـي تحبـه ولكنـه لا يحبهـا.. فعلتُ لهـا كل ما ينسـيها إيـاه ولم أفلح.. هـي صديقتـي وأختـي وكل شيء بالنسـبة لي.. كنت قد يئسـت من أن تنسـاه حتـى وجدتـك تفتـح لي بابًـا آخـر مـن النـور فواربتـه ولم أغلقـه.. وأعطـاني حماسـك ورفضـك لتحذيـراتي أمـلًا قويًـا في نجاحـك .. ولكن..

صمتت قليلًا فقلت أنا:

– أكملي.. لا انتظري سأكمل أنا!.. فشلت.. أتريدين قول ذلك؟

هزت رأسها نافيةً:

– لا.. لم تفشـل.. لم تكـن لـك فرصـة المحاولـة مـن الأصـل.. هـي لا تحبـه.. هـي مريضـةٌ بـه.. في الشـهرين الماضيـين الذيـن لم تـأتي فيهـما قضـت أغلبهـا في المشـفى.. تسـوء حالتهـا الصحيـة والنفسـية ولـن تتحسـن إلا بـه وهـو يعلـم ذلـك ويتمتـع بذلهـا.. لا أعلـم كيـف أسـاعدها وجئـت إليـك لعلـك تسـاعدني.. فلقـد فعلـت كل مـا بوسـعي مـن دون فائـدة.

لم أتمالك نفسي حينها وثرت قائلًا:

- وما ذنبي أنا!!.. ولماذا أصلح خطًا لم أرتكبه.. ولمَ أساعدها وهي لا تريد أن تساعد نفسها!.. هي حرةٌ تفعل ما تريد.. وكل ما بوسعي أن أفعله لأجلها.. أن أنساها.

هزت رأسها نافيةً بكل ثقة وقالت:

- لن تنساها..

زادت ثورتي:

- سأنساها.. وإن كنت قد أحببتها فور ما رأيتها فأنا قادر على كرهها فور ما أقرر.

- لن تنساها..

هدأتُ لهدوئها وثقتها، تجزم بأني لن أنسى ولست قادرًا على تكذيبها، لم يكن أمامي سوى أن أقول لها كل ما بداخلي بوضوح تام:

- سأحاول.. وإن لم أنسَ سأكتفي بحبها وحدي.. لن أنتظر منها أن تحبني يكفي أنا.

اندهشتْ قائلةً:

- أتعي ما تقول؟!.

ابتسمتُ وأنا أقوم مستعدًا للمغادرة، وقلت بكل ثقةٍ وهدوء:

- نعـم.. سـأحبها وأنـا بمنتهـى القـوة.. حـبٌ لـن يشـاركني فيـه أحـد.. حتـى هـي.

تركتهـا وغادرت، غـادرتُ وأنا أجيب على سـؤالها بصـدق تامٍ بصوت لا تسـمعه، فلقـد صدقت هي وكذبـتُ أنا، فلـم أكن أعي فعلًا مـا أقول..

اجتـماع الاتحـاد هذه المـرة كان مختلفًا، ففـور ما دخلـت عليهم وجدتهم يصفقـون ويصفـرون، لم أفهم شـيئًا حتى وجـدت أحدهم يقول:

- فاقت ردود أفعال مقالك ما توقعنا.. سلمت يداك يا قائد.

شـكرتهم جميعًـا طارحًـا موضوعًـا آخـر في سرعـة، لا أنكـر أني اكـره الاضـواء واكـره ايضًـا مثـل تلـك اللحظـات، لا أحـب المـدح وخاصـة عـلى مـا أكتبـه، لـذا؛ رأيتهـا تبتسـم مـن نفـس مكانهـا، فهـي تفهـم ذلـك، كانـت تجلـس في نفـس المـكان التـي كانـت عليـه بالأمـس ناظـرةً إلى «حاسـبها الآلي» مشـغولة في أمـر مـا عليـه، فقلـت وأنـا أقـف في منتصفهـم جميعًـا:

- شـكرًا لكـم جميعًـا.. هـذا ليـس بمجهـودي وحـدي ولكنكـم شركاء في هـذا.. ولكـن دعونـا ننظـر إلى شيء أهـم الآن.. سنسـافر أسـوان في نهايـة الأسـبوع.. فلقـد تأخـر سـفرنا هـذا العـام والنـاس تنتظرنـا نفعـل مـا نفعلـه كل عـام.

قال أحدهم:

- لقد جهزنا كل شيء وسنسافر أن شاء الله فجر الجمعة.. وجميعنا جاهزون أيضًا.

وافقوه جميعهم وأومأوا برءوسهم عداها هي لترفع رأسها قائلةً:

- لقد اعتذرت عن السفر يا معاذ.. صحة والدي ليست مطمئنة لأتركه وحده وأذهب.

هززت رأسي متقبلًا عذرها، كنتُ متماسكًا إلى أقصى درجة وكأنني لم أُقتل منذ لحظات، اتفقنا جميعًا على كل شيء وغادرنا لنستعد للسفر فلقد كنا بالثلاثاء ولم يتبقى سوى يومين، باءت لي تلك الفرصة مناسبةً جدًا لأطوي جميع ما حدث وأذهب، وخاصةً إذا كان السفر إلى مكانٍ له معزةٌ خاصة بقلبي، زهرة الجنوب، أسوان.

*****

عـدتُ للبيـت، ولكـن هـذه المـرة عـدتُ بعقـلي فقـط، تركنـي قلبـي معهـا ولم يـأتِ معـي، سـيطر الشـتاء عـلى جميـع الفصـول مـرةً أخـرى، عـمَّ السـواد عـلى كل الألـوان التـي أراهـا، أصبحـتُ لا أرى غـيره، هنـاك وجـعٌ يعتـصرني مـن الداخل ولا أقـوى عـلى مواجهته، أصبحـت صامتًـا، منعزلًا، أنظـر لهاتفـي ببلاهةٍ شـديدة غير مكـترثٍ بمن يتصـل، حتى والـدي ورحمة، لم يعرفـا شـيئًا عـن ما يحـدث بداخـلي، وصديقتـي المقربـة التـي لم أخبرها أي شيء عـن حبيبـة من الأصـل، وكان مـبرري الوحيـد هو ضغـط الامتحانات وقلقهـا، لم يصدقـوني ولكنهـم جـاوزوا ذلك عندما وجدوني أسـتعد للسـفر إلى أسـوان، كنـت أحتاج لهم كثـيرًا ولكني لم أُشـعرهم بذلـك، كان الحزن قد أقنعنـي بأنـه لا ذنـب لأحـدٍ في مشـاركتي لـه، فوحدنـا نعلـم مـاذا يفعل بي، فهـو قـاسٍ جـدًا إلى درجـة أنـه لا يفارقني حتـى في نومـي، أصبحنـا أصدقاء رغـم تنافـر قلوبنـا إن كان لـه قلب..

سـافرت لأسـوان، وأنـا أحـاول بأقـصى مـا عنـدي أن لا يـرون مـا بي مـن وجـعٍ وحـزن، كنـت أخبئ ذلـك بحرفيـةٍ بالغـة بين طيـات ابتسـامتي، ولكنـي لا أنكـر أبـدًا بـأن تلك الرحلـة قد أخـذت من حـزني الكثـير، لم ينتهِ أعلـم ذلـك ولكـن إذا ما شـاركت حزنك لمـكانٍ تحبه فسـوف يتبـدل حزنك إلى اسـتمتاعٍ بالحـزن، فهـي أسـوان، القطعـة المباركـة مـن نامـوس الراحـة النفسية..

فهي زهرة الجنوب، المتجر الفريد من نوعه، بدءًا من الأثواب النوبية الجميلة، انتهاءً بقطع الآثار المقلدة، وبيوتها وناسُها اللذان لا يختلفان كثيرًا عن تلك الآثار، ولكنها آثار حية، ليست مقلدة، فهي حقيقية، وحقيقية جدًا..

طقسها وجمال الطبيعة بها لن تجد مثلهما أبدًا حتى وإن طفت العالم مرتين أو ثلاثة، أما عن آثار قدمائنا العباقرة، فالآثار هنا لها ملامح خاصة، فهي تمتزج امتزاجًا تامًا مع ملامح مواطنيها في تقاربٍ يلتقط صورةً طبيعيةَ للحياة. ستشعر وأنت تزور آثار قدمائنا الموجودة هناك، أنك ترى بعينك لوحةً يتداخل فيها الإنسان والمكان ليكونوها بهذا الشكل المتناسق بأريحية تامة، ومن بين تلك المعابد معبد «كوم أمبو»، الذي يعود تاريخه إلى عام ١٨٠ قبل الميلاد لعبادة الآلهة «سبك وحورس»، وهو يوجد على ربوةٍ عالية تطل على نهر النيل، ويمتاز بنقوش جدرانه البارزة،. وهناك أيضًا أحبُ المعابد لقلبي؛ معبد «إدفو» الذي يعد من أجملهم وأزهاهم على الإطلاق، فهو يجمع بين الطراز الفرعوني واليوناني، وقد أنشئ لعبادة الإله «حورس» ويُروى على جدرانه قصة الحرب الشهيرة بينه وبين عمه «ست» إله الشر، حرب قصاصٍ فاز بها «حورس» في النهاية، وهناك أيضًا معبد «فيله»، وهو معبد الآلهة «إيزيس»، رمز الحب والوفاء، تلك التي طافت مصر كلها لتجمع أشلاء جسد زوجها «أوزوريس» الذي قتله أخوه «ست»، وجعلت من ابنها «حورس» منتقمًا لوالده، وهناك العديد أيضًا من المعابد الصغيرة، مثل معبد «أمنحوتب الثالث»، و»هيكل تحوت»، «المعبد البطلمي». والكثير والكثير من الآثار التي تقطن بوجداني وأحفظ تفاصيلها كما أنني قد ولدت هنا..

تلك هي المدينة التي أهواها وأهوى جميع من يهواها، سُكانها الجُمَلاء، المعنى الحقيقي للطيبة والإنسانية والجود، أعشق سمارهم، وموسيقاهم، أعشق النوبة بكل ذرة ترابٍ فيها..

ولكن سفرنا المفاجئ إلى هناك لم يكن للتنزه أو ما شابه ذلك، فلدينا مهمة يجب علينا فعلها.

فاتحاد طلابنا ينتمي إلى جميع المؤسسات الخيرية الحقيقية، لا مؤسسةٍ بعينها، فنحن ننتمي للفقراء، للكادحين، لليتامى والمساكين، ننتمي لكل من يمد يده للمساعدة ومن لم يمد، هكذا سمعتُ الله يقول في جميع كتبه السماوية..

وسفرنا لأسوان بالتحديد، هو لأنه قد حدثت هزة أرضية أطاحت بمعظم بيوت أهل قرية"كوم أمبو"، وبيوتهم ليست معقدةُ كبيوتنا نحن القاطنين بالقاهرة وأشباهها، فبيوتهم بسيطةُ كقلوبهم، يعتبرون الشمس هي ساعتهم، يستيقظون بها وينامون عندما تأفُل، لذا فلقد قررنا الذهاب ومعنا بعض المتطوعين من الجامعة وأصدقائنا..

وبرغم أن هؤلاء المتضررين قد لا يجدون طعام الغد، يقدمون لك طعام اليوم بنفسٍ راضية، يؤثرون على أنفسهم حتى وإن اشتدت حاجتهم لهذا، كان العمل وإعادة بناء بيوتهم صعبٌ إلى حدٍ كبير، ولكن تكفي ابتسامة الأطفال هناك، تشعر بأنك تعمل عملًا عظيمًا ومقابله أعظم، حتى أتى آخر يومٍ لنا هناك، أتذكر تفاصيله كاملةً كأنه قد حدث بالأمس..

كنا قد انتهينا من العمل في بيت أحدهم حتى أتانا صاحب البيت يشكرنا واقترح علينا بـرَد معروفنا بمعروفٍ أكرم، اندهشنا من قوله فقال بلكنةٍ عفوية:

- سنذهب بكم إلى الدرويشة، فإن دعاءها مستجاب وقلبها بباب السماء واقفٌ فاغتنموا الفرصة.

لم يُثار فضولي كبقية من معي الذين أسرعوا معه إليها، دخلوا جميعهم وطلبوا منها ما يتمنون حدوثه إلا أنا، مال على أذني ذلك الرجل قائلًا:

- لا تضيع الفرصة، فإنها درويشةٌ لا تُرد دعوتها.

لم يكن هناك ما أخسره، فدخلتُ ولم أكن مقتنعًا بما يقولون تمام الاقتناع، وجدت امرأةً أعتقد أنها جاوزت السبعين ربيعًا وبجوارها امرأةً تصغرها بأعوامٍ لا تُذكر، قالت تلك المرأة التي تجلس بجوارها:

- ادعُ يا ولدي فهي تسمعك.

أخذت تدور الأفكار والدعوات بداخلي، لا أعرف ما أريد!، الأفكار كثيرة برأسي ولا ينطق لساني بشيء، حتى وجدتني أهدأ قليلًا وأغمض عيني وأقول:

- قولي لها أن تدعو لي بأن أجد ما أبحث عنه.

اندهشت تلك المرأة من قولي فقالت:

- سمِّ حاجتك يا ولدي!.

ابتسمت وأنا أقوم متجهًا إلى الخارج وقلت بهدوء:

- الله أعلم مني بما أريد.

خرجت وفي أُذني عبارة أبي تتكرر في أذني بلا انتهاء

«دع الله يختار لك.. فمن صنع طريقًا أولى بإنارته»..

انتهت الرحلة، عدنا إلى القاهرة آمنين مطمئنين، لا تزيغ عن قلوبنا ابتسامة تلك الوجوه السمراء النقية فرحين بما فعلنا لهم، وتلك العرافة لم تذهب من رأسي أيضًا، تأتيني في منامي كثيرًا وأستيقظ لا أتذكر شيئًا مما رأيت..

وفي يومٍ ما، أتذكر أن صديقًا لي قد وسوس له الشيطان في أذنيه فبال هو في أذني، غوى لي أن هناك مشروبًا غازيًا يساعد على تنشيط الذاكرة وليس به كحول، واستدل على أن الكحول يُذهب العقل فكيف ينصحني به لأنشط ذاكرتي!، فسقاني خمرًا للمرة الأولى والأخيرة في حياتي، واحتج بأنه فعل ذلك لأنه رآني قد تغيرتُ في الفترة الأخيرة، ساءت حالتي النفسية كثيرًا، تقربتُ من العزلة فتقربتْ مني، أصبحتْ قصيدة «وحدك» التي قالها «درويش» هي المحرك الرئيسي ليومي، لذا فعل ذلك ليساعدني فلم يعد بيننا وبين امتحانات نهاية العام سوى أيام، وإن كانت نيته صالحة، ففعله طالح، وانتهت صداقتنا من ذلك اليوم، ولكن تأثير الخمر لم ينتهِ في ذلك اليوم، فأنا أتذكر ما حدث يومها ويُعاد في ذهني حتى وأنا أكتب الآن..

شعرتُ أن قدميَّ ليست على الأرض ويديَّ جناحان أُحلق بهما وأنا على مقعدي في المقهى، لا أشعر بشيء يُزعجني، فقط أطير..

وظللت هكذا حتى أقلني صديقي هذا إلى البيت، ومن حُسن الحظ أن أبوايَّ كانا نائمين فقد كانت لتهدم بيننا أشياءٌ لن تبنى مجددًا، دخلتُ غُرفتي ووجدتني أجلس على مكتبي وأنظر إلى اللاشيء، أخذت أضحك كثيرًا وكثيرًا حتى بلّت دموعي الأوراق، تلك الأوراق التي كانت المؤنس الوحيد لوحدتي، فكنت أكتب بشراهةٍ في تلك الفترة، وحينها تمَّلكني هاجس الكتابة فكتبت، كتبتُ وتحوم حولي خيالات كل شيء، ياسين، رحمة، صديقتي تلك، وحبيبة، أرى حبيبة تقف بعيدةً تنظر لي وتضحك، عجبًا للضاحكين الممسكين بأيديهم سكاكين تنحرنا، لا تخطيء عيناها هدفها، تصوب أسلحتها ناحيتي بدقة مذهلة، كلما حاولت الوقوف ترميني بسهمٍ يبتر قدمي بترًا، ولكن هناك لحظةُ تتجلى فيها القوة للمرضى والمساكين، منهم من يهرع إليها، والكثير لا يملك شجاعةً تُبعده عن مرضه، هناك من يتداوون بالداء، ولكن شاء الله حينها أن أخطوا خطوةً للنسيان والشفاء، فوجدتني أكتب بيدي حينها المشهد الأخير..

« ليست النهاية ..

أكتب لكِ بعد ما ظننت أني سأذهب بعيدًا، بعد ما قررت أن أتوقف عن ممارسة كل ما يُشعرني بأني ما زلت حيًا، سأعتزل الناس إذن، وأبني هاهنا ديرًا لن يدخله سواي .. ها أنا ألوح لكِ من على شاطئي، أراكِ هناك تلوحين بالوداع لشخصٍ آخر، أقرؤك السلام يا من جعلتني أؤمن بنفسي ثم هديتني إلى طريق الكفر الأبدي، سلامًا يليق بوجعي بعدك، سلامًا من رجلٍ قد ظن أن القلم والخيال سلاحه وقوته فقرر أن يتجرد منهما ..

لن تنسيني، فلم أُخلق لأُنسى، أنا على يقين بأنك مازلتِ تستمعين لـ جاهدة، وتجلسين بمفردك بين أيادي الظلام كما عودتكِ، أظنكِ أقلعتي عن قهوة تشربينها بمفردك، وأظنك أيضًا تشتاقين لي ولكني أثق -آسفًا- بأن ذلك القلب الذي هزمني لن ينتصر لكِ أبدًا، أقسم لكِ بهذا ..
ها أنا ذا، ذلك الرجل المسموع قلمه، الذي تذهب الأضواء معه حيث ذهب، أبكي بصوت لا يسمعونه، ومن هنا غيري حتى يسمع!، يبدو أن غرفتي قد أصبحت ديرًا كما ظننت!، ويبدو أنني لم أفلح في انعزالي عن كل شيء، أكتب الآن وأنا أحبس كلماتي أن تقول ما لا أريد قوله، أقول ما تمليه عليّ إرادتي الآن، ما زلت حيًا، سأظل أكتب، سأظل أحيا رغم أنفك، لست قويًا كما تعلمين ولكني لست بهذا الضعف أبدًا، كنت أحتاج فقط لفرصة كي أجد سبيلًا بعيدًا عن سبلك الواهية لألقاني، كنت أفتقر إلى دليلٍ قاطع بأني نبي ولدي ذو رسالة فلا وقت لدي للاستسلام،

لا أمتلك خيار الانسـحاب، أردت شيئًا يجعلني أؤمن بنفسي مجددًا ووجدته .. سأكتبُ.. سأظل أكتب فإنها ليست النهاية..

فـإني أراهـا تأتينـي كل يـوم تأتينـي في منامي تمسـك بيـدِ تلـك العرافة ولكنـي لا أحـدد ملامحهـا، ولكني أعرفهـا جيدًا، فهي لا تشـبه أحـدًا.. فهي فريدة.

هي..

أنا لا أشبه أحدًا فأنا فريدة، هكذا قال لي معاذ..

الفتاة الوحيدة ببيتٍ يملؤه الذكور، علمتني أمي كيف أتحمل مسؤولية بيتٍ بأكمله وأنا لم أتجاوز العاشرة بعد، وكأنها كانت تعلم بأنها سترحل تاركةً ورائها زوجًا وثلاثة أبناء، أنا أصغرهم سنًا ولكن أكبرهم عقلًا..

تعلمتُ كيف تكون الأنثى أُمًا لأولادٍ لم تنجبهم، وأن عليّ دائمًا أن أعطي كل ما عندي دون أن أنتظر أن آخذ شيئًا، تعلمت كل ذلك دون أن أعلم عني شيئًا..

يعمل والدي مهندسًا بـ«مصر للطيران»، وبرغم أنني كنت دائمًا أهوى أن أذهب معه إلى عمله وأرى الطائرات تحلق في السماء، لم أجرؤ على الطيران أبدًا، حقيقةً أو خيالًا..

كنتُ متفوقة في الدراسة في جميع المراحل، حتى انتهى بي المطاف إلى مثل ما انتهى المطاف بأبي، كلية الهندسة جامعة القاهرة..

ولكن عندما حان وقت اختيار قسم الدراسة بالكلية، لم اختر قسم «الميكانيكا» كوالدي، فلطالما ما كنت أتساءل كيف للإنسان الآلي أن يكون له ماهيةٌ نعترف بها نحن البشر الحقيقيون، فوجدت أن هذه الإجابة يمكن أن أجدها في قسمٍ واحد، قسم» الميكاترونكس»..

ويبدو أن كوني البنت الوحيدة لم يتوقف على البيت فقط، فقد كنتُ البنت الوحيدة بهذا القسم أيضًا، ولم يدفعني ذلك إلى الرجوع عما اخترت، فأنا امرأةٌ مستقلة، أعرفُ ما أريد، لي قدمين ورجلين ورأس مثلما يمتلك أبناء آدم، لا فرق بيننا في شيء سوى أنهم لا يؤمنون بهذا..

أعشـق القراءة، فـإني أرى دائـمًا أن القراءة هي السـبيل الوحيـدُ لتعيشِ إنسـانًا، متفهـمًا واجباتـه وحقوقـه، فأنـا أهـوى القـراءة في مختلـف المجالات والفـروع، ولكن للروايـات مكانٌ خـاص بقلبي، وخاصـةً روايات «رضوى عاشـور»، فلقـد ذهبـتُ معهـا إلى غِرناطة، وحفظـت تفاصيـل الأندلس عن ظهـر قلب، وعشـقت حُبها لُمريد، وهِمت بعشـقهما لفلسـطين، ولكن سـيبقى كاتبـي الأهـم بينهم هـو صديقـي المقرب، معاذ ياسـين..

فلقـد احتفظـت بكل مـا كان يكتب مـن خواطـرٍ ويعطيهـا لي لأقراها، كنـت دائـمًا مـا ألهيه عنهـا فلا يتذكـر أني احتفظـت بها..

ومـن هـذه الأوراق مـا عشـقتها وحفظتهـا كأنهـا قـد كُتبـت لي.. فأنـا أقرأهـا دائـمًا قبل أن أنـام، وهو لا يعلم ذلـك، وعندما يتحـدث عنهم أتظاهر بـأني قـد نسـيتهم فـور مـا قرأتهـم، لم يكن ينبغـي لـه أن يعلم غـير ذلك..

وهذا بعض مما كتب معاذ:

«وكأن الله لم يخلـق غـيرك، كأنـه قـد أفـضى عليـكِ بعضًـا مـن جمالـه لتصبحـين بـه عـلى رأس نسـاء أهـل الدنيـا.

ربـما تكـون هـذه هـي رسـالتي الأولى لـكِ ولكنـي أؤمـن تمامًـا أنهـم سيسـتخدمونها بعـد سـنواتٍ طويلـة في إثبـات أن هنـاك رجـلًا قـد سـخر الله لـه جميـع مقاليـد ومفاتِـح الكتابـة ليكتـب إلى امـرأة ليسـت مـن البـشر!، مـن البـشر مـن هـم ليسـوا بـشرًا! نعـم.. فأنتـي لا تنتمـين سـوى لـكِ. أُرسـل لـكِ خطـابي هـذا مدرجًـا معـه بعـض تفاصيلنـا التـي أعـي أنـك

فـور مـا تقرأينهـا سـتبدو نواجـزك في الظهـور معلنـةً عـن ابتسـامة تـشرق شمسًـا في منتصـف الليـل، هـذا الوشـاح الـذي تركتيـه لي يحمـل رائحتـكِ التـي لا تضـل الطريـق إلى أنفـي أبـدًا، هـذا الدعـاء الـذي سـمعتكِ تدعينـه لي خلسـةً دون أن تعلمـي، هـذا الليـل الـذي قـد تركنـا في سـاعاته ودقائقـه الكثـير مـن ضِحكنـا وحديثنـا الـذي لا ينتهـي إلا عندمـا يعلـن الفجـر مجيئـه فنتوضـأ بـما تبقـى مـن حديـثٍ أجلنـاه لليلـةِ المقبلـة، ويـأتي وقـت الصـلاة فـلا نـدري أي مخـدرٍ ذلـك الـذي نتناولـه فيجعلنـا ندعـوا لبعضنـا ونسـانا! ولا نلبـث طويـلًا حتـى نلتقـي في عالمنـا الآخـر.. عـالم لا يكـون فيهـا سـوانا.

أعلـم أنـك قـد تركـتِ لي كثـيرًا مـن ملامحـكِ عـلى وجـوه جميـع مـن تراهـم عينـي ولكنـى لا أدري أهـذا تسـتحقين عليـه شـكرًا حقًـا أم أنـكِ قـد أردتِ معاقبتـي! فكـم هـو بائـسٌ أن أنـادي جميعهـم باسـمكِ وأن أسـمع أصواتهـم كصوتـكِ وأن أراكِ في جميـع مـا أرى! لا أعلـم حقًـا. هـذه رسـالتي الأولى، فلتبـدأي في حفظهـم ورميهـم يـا عزيـزتي فلربـما قـد تقـع تلـك الرسـالة في أيـدي إحداهـن فترميـكِ بسـهمٍ لا تشـفين منـه أبـدًا، لا أنثـر العطـر فـوق مـا أقولـه ولكنـي عـلى يقـين أن نسـل حـواء بـأسره يتمنـى أن يكتـب لإحداهـن رجـلًا مثـلي قـد قصمـه قلبـه فأصبـح قويًـا لهـا وبهـا ولأجلهـا، وأن ليـس هنـاك رجـل سـيكتب لامـرأةٍ أيًـا مـا كانـت مثـل مـا أكتـب لـكِ، فإنهـم لا يمتلكـون عينًـا يرونـكِ بهـا مثـل مـا أراكِ.. دمتـي حُلـوة.»

لا أسوأ من شعور أنثى يتغزل رجُلها في أخرى، حتى وإن كانت الأخرى تلك من درب الخيال فقط، ولكنها في النهاية أنثى، والأنثى إذا أحبت فلا مكان لتاء التأنيث في حياة من تُحب سواها، فأنا أحبه، أحبه جدًا ولكنه لم يعلم ذلك..

كنت له كما كان يقول عني أنني صديقته المقربة، المرأة الوحيدة التي تفهمه دون أن يتحدث، ذلك الشخص الذي تخاف أن يربط بينهما رابط الحب فتخسره، كان يقول لي دائمًا أنه يخشى خسارتي كما يخشى خسارة والديه، يُجبني من زاويته الخاصة، دون عهودٍ أو روابط، وكنت دائمًا ما أوافقه على ذلك، وإذا قال ذلك أحد أصدقائنا من باب الدعابة فإنني أتظاهر بسخافة الموضوع كما يفعل هو الآخر، لم يفهم الغبي حينها أنني أحبه حتى اشتكى قلبي منه ومني..

كنت أذنًا صاغيةً له، أسمع الكثير عن معجباته وأضحك كأن الغيرة لا تقتلني، ويُكمل هو بسخافته المعتادة دون أن يدرِ ذلك، حتى يفيض بي الكيل أحيانًا ولا أضحك، بل أضحك كثيرًا..

كنت عضوةً معه في اتحاد الطلبة الذي يرأسه، فهو قائد حقًا، صلبٌ وذكي، يظهر للناس دائمًا بوجهٍ يهابونه، فكان الجميع ينادونه بالقائد، إلا أنا، فأنا الوحيدة التي أرى ما لا يراه الآخرون، لا يرون أنه طفلًا كبيرًا، ينزوي بركن غرفته إذا ما أغضبه أحدهم، يُحب ويكره بطفولية تامة، لا يعرف الخُبث، يبكي بمفرده، أو أمامي، يحب الجلوس وحيدًا، أو معي، فمهما

كانـت شـدته وبأسـه فهـو يعلـم أني أراه مـن دون حجـاب، أسـمعه دون أن يخـبرني، أشـعر بـه دون أن يكـون أمامـي..

كنـت أعلـم أنه قد وقع في حـب امرأةٍ أخرى، لم أخـبره بذلك وانتظرت منـه أن يفعـل ذلك ولكنه لم يفعـل، لا أعلم مما خاف ولكنـي انتظرته، انتظرته وأنـا أعلـم أنـه سـيعود إليَّ في النهاية، هكـذا سـمعت «جاهدة وهبـة» تقول، قالـت لي ذلـك وأنـا ممسـكةً بإحدى أوراقه أشـم ريحـه فيها، كانـت تقف على حافـة سـماعات الأذن بمقربـةٍ مـن قلبـي وغنَّت منكـسرة: «وتهجركَ النسـاء جميعهـم وتعـود منكـسرًا إليّ»، فصدقتها، وانتظرت، لم أسـافر معه إلى أسـوان رغـم إحسـاسي المُلِـح بأنـه بحاجـة إليَّ، وأنـا أيضًا كنـت بأمس الحاجـة إليه، ولكـن سـوء حالـة والـدي الصحيـة منعتنـي مـن السـفر معهـم، وكلـما كان يـزداد اشـتياقي لـه كنت أدعُو لـه بأن يهديـه الله إليّ، وإن كنـا لا نصلح لبعضٍ فليرمـي الله في قلوبنـا الهدايـة والصـلاح، فأنـا لا أريـد سـواه، هـو آدم ببنيـه بـكل نسـله، هـو الوحيد الـذي لـه الولاية على قلبـي ولا أريـد غيره..

كان يأتينـي في أحلامـي كثـيرًا ولا أخـبره، أعانقـه عندما أحتـاج لعناقه دون أن يشـعر، في مـرةٍ منهـم، نمـتُ كعـادتي وأنـا أحتضـن ورقـةً قـد كتبهـا ونسـيها معـي، أعتقـد أن تلـك المـرة كانـت في سـفريته تلـك، كنـت افتقدته بشـدة فأتـاني في رؤيـاي، أتذكـر ذلـك الحلـم جيـدًا، كنـت نائمـةً عـلى كتفـه وكان يمسـك نفـس الورقـة ويتلوهـا في هـدوءٍ يسـحرني..

«أُرسل لكِ هذا الخطاب علّني أجد ريحك، علّكِ تخضعين لما يمليه عليكِ قلبكِ وتهرعي إليّ بكل ما أوتيتي من قوةٍ لتقفين هنا! وتعانقيني.. تعانقيني حتى يذوب ما بداخلك من خوف.. هنا حيث ملجأك وأمانك، هنا حيث صدري وأعلم أنك تجيدين التنفس هنا .. ربما أخطئ في حقك كثيرًا، ولكني لم أرَ أُمًا تسئم من ولدها أبدًا إذا غضب وحمَّلها نتيجةُ فعلٍ لم تفعله!، ولا أكترثُ بمن يقول كيف تكوني أُمًا لطفل يكبركِ سنًا، إن الأمومة لا تُقاس بالعمر أبدًا! فلو كانت بالعمر فلستِ أُمًا، وإن كان النقيضِ فليس هناك أُمًا سواك. . فلتذكرين يوم ما أهديتكِ باقة الورد التي تشبهكِ، وأذكري حينها أنكِ قد أجبرتي يديكِ أن تسكن مكانها خشية أن تفتحين ذراعيكِ لي وتعانقيني، شعرت بذلك وابتسمت، ربما مثل الابتسامة التي تُرسم على شفتيكِ الآن .. فلتغمضِي عينيكِ إذن، فإني آتٍ ومعي باقة أخرى من الزهور، وبعضٌ من الشيكولاتة التي تهوينها أكثر مني، فلتغمضِي عينيك يا صغيرتي فإني آت ..»

وكلما أقرأ ذلك، أمتثل لأمره وأغمض عيني كما أفعل الآن..

حتى عاد من سفره، ولكنه عاد شخصًا غريبًا لا أعرفه، استسلم للعزلة ولكونه وحيدًا، لم يعطني فرصةً لأساعده رغم علمه بأني أستطيع فعل ذلك، فصمتُ، وبداخلي سكاكين لا تبرح موضعًا إلا وأنهكته وأهلكته، وظللنا هكذا، نتحادث كالأغراب، يبعد كلما حاولت الإمساك به، حتى أتى اليوم الذي كان كالبرزخ فقسم حياتي جزأين متناقضين، أتذكر ما حدث في ذلك اليوم كأنه قد حدث بالأمس..

أتذكر أنه كان في أواخر ديسمبر، تحديدًا في الثالث والعشرين منه، كان الوضع قد بقي على ما كان عليه بعد عودته من السفر، ولم يكن بيدي شيئًا لأفعله، وكان لي فترة قبلها أرى يوميًا امرأة شكلها غجريٌ وملامحها غير واضحة، تأتيني وتمسك بيد أحد وتشير إليّ، كان يتكرر ذلك الحلم كثيرًا، ولكني لم أكن أبالي بذلك، شأنه شأن الأحلام التي نراها ونستيقظ غير متذكرين أيًا منهم إلا إذا رأينا شيئًا يذكرنا بهم.

ولكن في ذلك اليوم كان الحلم مختلفًا، لا بل كانت الرؤية مختلفة، فلقد رأيت تلك المرأة تأتي إليّ مبتسمة، يخلو فمها من الأسنان فتبدو ضحكتها نقية وسحرية، وكانت ملامحها واضحة أيضًا تلك المرة، وملامح من تمسك بيده أيضًا، تقول لي هذا هو محبوبكِ الذي تنتظرينه، كان معاذًا، كان جميلًا كما اعتادت عيني على رؤيته، يرتدي ذلك القميص الذي أهديته له في عيد ميلاده السابق، مبتسمًا، هادئًا، تفوح منه ريحه التي تميزها أنفي من بين آلاف الرجال..

استيقظت ذلك اليوم فزِعة، لا أفهم شيئًا، ثمة شيء ما يحدث لا أعرف ماهيته، أخذت الأفكار والهواجس تلتهم عقلي ولم يكن لدي فرصة لاستيعاب شيء، ولكني لم ألبث كذلك طويلًا، تكفل آذان الفجر بإخماد كل ذلك، وما كان لتلك الحرائق التي نشبت برأسى أن يطفئها شيء سوى الوضوء، توضأت وقمت للصلاة وبداخلي طمأنينة لم أكن أعلم من أين أتت ولكني الآن أعلم..

خلـدتُ للنـوم ثانيةً، ولكني اسـتيقظت هـذه المرة على صـوت هاتفي، كان معـاذ هـو المتصـل، لم أُجيـب من المـرة الأولى فلقـد كنتُ فاتحـةً عيني على أخرهـا، فلـم يتصل بي منذ شـهور، ولا يـأتي الجامعة إلا قليـل، ولكني أجبت من المـرة الثانية، ودار حديثنـا كالتالي..

- صباح الخير.

- صباح النور يامعاذ.. كيف حالك؟.

- بخير الحمد لله.. وأنتِ؟

تنهدت قليلًا قائلةً:

- بخيرٍ الحمد لله.

صمت قليلًا ثم قال:

- أريدُ أن أراكِ اليوم.. بأى حالٍ من الأحوال.. لابد أن أراكِ اليوم.

دُهشت من إصراره غير المعتاد فأجبت:

- خير يا معاذ.. أحدث شيء؟

أعاد ما قاله كأنه لم يسمعني:

- أريدُ أن أراكِ اليوم.

فكرتُ لثوانٍ، ثم قلت له:

- حسنًا.. سأراك في الجامعة.

- حسنًا.. مع السلامة.

أغلقتُ الهاتف ووجدتني بتلقائية شديدة أذهب إلى «دولاب» ملابسي وأنتقي نفس الفستان الذي كنتُ أرتديه في ذلك الحلم، ولم أكن أفهم لماذا فعلت ذلك حتى رأيته، كان يرتدي نفس القميص أيضًا، لم أُخفي صدمتي من رؤيته كذلك، وعلى الرغم من أن آخر مرة رأيته فيها هنا كانت لحيته كثيفة وتدل على عدم اهتمامه بنفسه، فإنه هذه المرة قد أتى مهذبًا إياها كما أحب دائمًا أن أراها، وعلى عكس عادته، فور ما رآني وجدته يقوم من مجلسه ليستقبلني!، أزاح الكرسيّ الذي من المفترض أن أجلس عليه لأجلس ووجهي ترتسم عليه علامات الدهشة، أعرفه من سنوات ولكني لم أره هكذا من قبل، وجهه مُشرق، ابتسامته مضيئة، ماذا حدث له ليصبح هكذا؟!، وما الذي قد سوء نفسيته إلى هذا الحد الذي كانت عليه؟!، آلاف الأسئلة تدور في رأسي وهو صامتٌ ينظر إليَّ في هدوء تام، قطعتُ ذلك الهدوء وسألته:

- أخافتني يا معاذ! ماذا حدث؟

ابتسم قليلًا وقال:

- لا شيء.. ولكن حدث معي شيء غريب لابد أن أخبركِ إياه.

- ماذا حدث؟

- أولًا يجب أن أخبركِ بشأن شيء خبأته عنكِ.. ولا أعلم لماذا لم أخبركِ ولكني لم تكن لدي الرغبة في ذلك..

صمت لوهلةٍ ثم أكمل:

- سبب كل ما حدث هو أنني أحببت.

جاهدتُ بأقصى ما عندي لأخبئ ذلك الانكسار الذي اعترى وجهي فجأة ونجحتُ في ذلك، ما كان لقلب الأنثى أن يخطئ في ذلك أبدًا، أردف قائلًا:

- ولكنه لم يكن حبًا.. كان خطأ من بدايته لنهايته.. ولكني شفيت منه تمامًا.. والفضل لكِ.

أشرتُ بإصبعي إليَّ مندهشةً:

- لي أنا؟!!.

رد بثقةٍ بالغة:

- منذ أن عرفتكِ وأن أخاف من خسارتك.. وابتعدت عنكِ طوال هذه الفترة لأني لم أكن واعيًا تمامًا بما أفعل.. فخفت.. خفت أن أخسركِ.

شعرتُ حينها أنه قد حان وقت قول كل شيء، فقلتُ من غير تفكير:

- لن أخسرك مهما حدث.. كان عليّ أن أقف بجانبك في هذه الفترة.. ما كان لك أن تفعل ذلك أبدًا يا معاذ.

صعقني قائلًا:

- المهم.. الشيء الغريب الذي حدث.. كنت قد سافرت لأسوان كما تعلمين.. وهناك.. رأيت عرافة أو كما يطلقون عليها درويشة.. وطلبتُ منها أن تدعو لي بأن أجد ما أبحث عنه.. ولم أكن أعلم ما الذي أبحث عنه من الأساس.. ومن وقتها وأنا أراها في المنام دائمًا.. تأتي وهى تُمسك بيدها أحدٌ ولكن ملامحه لم تكن واضحة.

صمت طويلًا تلك المرة وعيني جاحظةً على آخرها، لا أستوعب ما يقول بتاتًا، غير معقولٌ ذلك الذي يحدث!!، ولكنه لم يكتفِ بذلك وقال:

- ولكن اليوم رأيت ملامح تلك الفتاة التي تمسك بيديها.. فهي لم تشبه أحدًا أبدًا.. فهي أنتِ يا فريدة.

توقف الزمن للحظات، لا أرى شيئًا أمامي غيره، يبتسم بهدوء كأنه لم يفجر قنبلةً منذ ثوان، أردتُ أن أخبره بأني رأيت ما رآه بالتفاصيل نفسها، وإن كان هو قد رأى تلك الدرويشة في الحقيقة فكيف لي أن أراها أنا في الحُلم، أردت إخباره بكل شيء، عن الأوراق والأحلام وكل شيء، ولكننى وجدت نفسي أتجاهل كل هذا وأطلق ثورتي للمرة الأولى في حياتى:

- معاذ.. أنا أُحبك..

هو..

لم تكـن النهايـة.. بـل كانـت بدايتي نحـو عالمـي الحقيقى الـذي لم أظن يومًـا أنـه موجـودٌ إلا في خيالي الحـالم فقط..

فلقـد أيقنـتُ أن حبـي لحبيبـة لم يكـن سـوى سُـلمٍ أصعـد بـه إلى أسـمى درجـات الفـوز بـكل شيء، فمـن ذاك الـذي يمكنـه صعـود الطابـق الآخـير دون أن يمـر بالطوابـق السُـفلى، فلـم يشـعر آدم بالجنـة حقًـا إلا عندمـا وطـأت قدمـاه الأرض..

كانـت صديقتـي المقربـة، نتشـارك الاهتمامـات والتفاصيـل الصغـيرة، وأحيانًـا مـا نتحـدث (بنفـس الحديـث) في الوقـت ذاتـه، ألجـأ إليهـا في كل شيء، فهـي تعرفنـي أكثـر منـي، ولكنـي سـاعدتها في ذلـك، فلقـد تركـت لها أبـوابي جميعهـا مفتوحـةً تدخـل مـن أي الأبـواب شـاءت؛ فدخلتهـم جميعًا، فكـرتُ كثـيرًا أن تكـون هـي الفتـاة المناسـبة لي، فلـن أجد مـن يجيـد التعامل معـي مثلهـا، فهـي ذكية، ذكيةٌ جـدًا وأنا أُحـب المـرأة الذكية، القويـة، القارئة النهمـة، فلقـد جُمعـت فيهـا الصفـات الحسـنة كلهـا، الخُلقيـة منهـا والخِلقية، فهـي المـرأة المثاليـة في نظري..

وبرغـم إيـماني بـكل ذلـك؛ لم أُحبهـا، كنـت أتفنـن في ممارسـة الغبـاء وأتحجـج بحجـج واهيـة؛ فكنـتُ أرى أصدقائـي دائـمًا مـا يعانـون من الحب وينتهـي الأمـر بالفـراق، فكنتُ أقـول في قـرارة نفسي لن أقوى عـلى خسرانها وإن حـدث ذلـك رُغـمًا عن إرادتي فسـوف يكـون الأمر هينًا ولـو قليلا، كنتُ غبيًـا، غبيًـا جدًا..

وعندما ساءت حالتي النفسية؛ وجدت نفسي من دون تفكير أهرع إليها، وقبل أن أدنو منها بشبرٍ واحدٍ وجدتني أتراجع أشبارًا وأشبارًا، ما ذنب تلك لتدفع ثمن تلك، كم أنانيٌ أنا عندما لا ألجأ إليها إلا في أوقات ضيقي فقط، فلقد أهملتها في الفترة القصيرة التي قضيتها مع حبيبة، ولم أكتفِ بإهمالها فقط!، بل لم أخبرها عن سبب إهمالي وبُعدي غير المُسَوَّغ وأن قلبي متعلق بواحدة لا ترقى بالمقابلة بها، وبرغم كل ذلك!، مدت يديها إليّ عندما شعرتْ بأني أحتاج إليها، فرفضتُ يديها، كنت غبيًا، غبيًا جدًا..

عوقبت على غبائي هذا كثيرًا، حتى أتى الفرج من الله، كانت تلك العرافة تأتيني في منامي تمسك بيد أحد ما ولكن تفاصيل وجه ذلك الشخص لم تكن واضحة، وبسبب أني كنت في مرحلة الاستشفاء من حبيبة لم أهتم بتلك الأحلام، حتى ظهر ذلك الشخص واضحًا أمام عيني، وللمرة الأولى أيضًا أرى تلك العرافة تبتسم، وذلك الشخص أعرفه تمام المعرفة، إنها فريدة، تبتسم كعادتها، ترتدي نفس الفستان الذي أهديته لها في عيد ميلادها السابق، وكانت تلك العرافة تشير إليّ وتهمس لها في أذنها ثم تبتسما سويًا، حينها؛ أيقظني صوت آذان الفجر فقمت هادئًا مطمئنًا، ومن الغريب أني لم أندهش من أن تكون فريدة هي الدعوة المستجابة، فلقد أكدت لي فترة انعزالي ذلك الأمر، فما يجوز لمختلفٍ مثلي إلا أن تكون حبيبته فريدة..

اتصلـت بهـا في صبـاح ذلـك اليـوم وقـد نويـت الذهـاب إلى الجامعـة بعـد فـترة انقطـاع دامـت طويـلًا، فـرح والـدايَّ كثـيرًا مـن رؤيتـي هكـذا، وبرغـم أني لم أحـكِ لهـم شـيئًا فلـم يُضيقـا عـليّ الخنـاق، كنـت متأكـدًا مـن أن والـدي شـعر أن حبيبـة وراء ذلـك وأخـبر رحمـة بذلـك لكـي لا تقتحـم عُزلتـي، محظـوظٌ ذلـك الـذي يملـك أبًـا مثـل أبي برغـم أنـه ليـس هنـاك مثلـه أبـدًا، فالحمـد لله عليـه سرًا وجهـرًا، علانيـة وسرًا، حمـدًا موصـلًا إلى أن ينتهـي الحمـد..

ذهبـت إلى الجامعـة وانتظرتهـا، وفجـأة؛ وجدت »درويـش« يكمـل مـا لم يكملـه في المـرة الأولى، ليتنـي انتظـرت وقتهـا وسـمعت تحذيراتـه، فلقـد قـال عـبر ذلـك «الراديـو» الموجـود بذلـك المـكان الـذي كنـت فيـه مـع حبيبـة في اليـوم المشـؤوم، قـال مخاطبًـا إيـاي:

« وانتظرهـا..إلى أن يقـول لـك الليـل لم يبـقَ غيركـما في الوجـود.. فخذهـا إلى موتـك المشـتهى.. وانتظرهـا»

الآن فهمـت، زادني الإصرار إصرارًا، ولكـن تلـك المـرة أشـعر بـأني أسـير في الطريـق الصحيح، لسـت قلقًـا ولا خائفًـا من شيء، فقـط أنتظرها..

حتـى أتـت، كنـت قـد رأيتهـا مـراتٍ كثـيرة، ولكـن هـذه المـرة بـدت مختلفـة عـن كل المـرات السـابقة، كانـت ككل شيء ولم يكـن شيء مثلهـا، كانـت المـرة التـي أدرك فيهـا حقيقـة اسـمها، فهـي لا تُشـبه أحـدًا، فهـي فريـدة..

أخبرتها عـن نبأ رؤياي، توقعت جميع ردود الأفعال في الدنيا من دهشـةٍ وصدمـةٍ وتعجـب ولم يحـدث شيء منهـم!، صارحتنـي بحبهـا فصُدمـت!، والصدمـة الكـبرى كانـت عندمـا أخبرتنـي بأنها رأت مثـل ما رأيـت في اليوم والوقـت ذاتهـا، لم يكـن ذلـك الشـعور الـذي يملأني تجاهها حينهـا حبًا فلم أصارحهـا بذلـك، قد شـغفتها حبًـا وقد شـغفني شـغفها فأحببتها..

مالـت كفـة الحيـاة إلى ناحيتـي، كانـت صديقتـي حقًـا ولكـن الأمـر مختلـف، الحديـث مختلـف، الرابـط مختلـف، شـخصٌ يشـاركك أحلامـك وهمومـك حتـى تفاصيلـك التافهـة، يشـاركك في كل شيء، يتحكـم قـي مِزاجـك ويحولـه متـى أراد، يعـرف خبايـاك التـي تجهلهـا أنـت عن نفسـك، فكانـت فريـدة هـى الـشيء الـذي تصالحـتُ بـه مـع العـالم مـن جديـد..

*****

الصمـت علامة القبـول، هذا أمرٌ متـدارجُ بين عُرفنـا وطبعانا الشرقية، أمـا الرفـض فليس لـه علامـات، والتمرد يبغـض الجبنـاء، وأنا مثـل والدي، لا ينبغـي عـليّ يومًـا أن أُسـاق بجبنهـم المختبـئ في بنادقهـم الهشـة، فـإن كان والـدي من أكثـر الذيـن جابهوا الظلم فأنا أشرسـهم وأشـدهم بأسًـا..

تحسـنت حالتي النفسـية وأصبحتُ أرى الأشـياء كما يجوز لهـا أن تبدو، واسـتفقتُ والتفـتُ ثانيـةً إلى مـا كنـت عليـه، بل عدتُ أنشـط مـن ذي قبل، آمنـتْ فريـدة بمبادئـي وقضايـا الوطـن مثـلي، لم تكـن من تلـك النسـوة التي تخـاف من الحـشرات والضوء الخافت، كانت امرأة قويـة فقويت بها، وازددتُ حماسـةً وانتشـارًا في كل بقعـة مـن بقـاع هـذا الوطـن المُغتصـب، أُعلن رفضي وتمـردي على سياسـاتهم النجسـة، لا أبـرح موضعًـا إلا وكتبتُ فيـه «الغضب السـاطع آتٍ» بينـما فريـدة تطيـب الجـدران بـ«لـن يقفـل بـاب مدينتنـا فأنـا ذاهبـةٌ لأصـلي»، زرعنـا مبادئنا في حقـول العامـة والخاصة وانتظرنـا الحصاد، وعندمـا بانـت أطراف أصابع ثـورة الجيـاع التهمتني الدبابـير، لم يفكروا مجرد التفكـير في اصطيـاد فريـدة فوالـذي نفسي بيـده لكانـت لتقوم قيامـةٌ صغرى لاتـذر منهـم أحدًا، وبرغـم أننى كنـتُ ناشـطًا في الجامعة لم يتسـنَّ لي زيارتهم مـن قبل، ربـما لأنني كنت محـددًا لنطاق حديثـي ومواضيعي، والمكان أيضًا، فاهتمامـي الأكـبر كان ينصـبُّ تجاه القضيـة الفلسـطينة، أمـا الآن فقـد قوت شـوكتي واشـتد عـودي، وكانـت زيـارتي الأولى لعـش الدبابـير مميـزة عـن لاحقيهـا، فأنـا أتذكر ماحـدث فيهـا بالتفصيل..

طاولـةٌ مسـتطيلة، صمـتُ قاتـم، أصـوات أقدام تـأتي من الخـارج ولا يـأتي أحـد، كنـتُ محافظًـا عـلى هدوئـي وثبـاتي الانفعـاليّ، وفي لحظـةٍ مفاجئة فُتـح البـاب لتدخـل تلـك القدمـان صاحبـة الصـوت، كانتـا لشـاب يكبرني بعامـين أو ثلاثـة عـلى الأرجـح، وجهـه بشـوش، ليـس بضخـم الجثـة كـما توقعـت ولكـن كان معتـدلًا في الطـول والـوزن، دخـل وأغلـق البـاب خلفه وجلـس أمامـي ليـدور بينـا الحـوار كالآتي..

- أهلًا بك يا معاذ.. ماذا تريد أن تشرب.

- لا أريد شيئًا.

صمت قليلًا ثم أخرج هاتفه الذي كان ثابتًا على صورٍ معينة وأراني إياها، كانت تلك الصور لي، وجمعت بين لقائاتي في الأحزاب والندوات والجامعة أيضًا، ثم أراني صورًا لفريدة، وأخرى لياسين ورحمة، ولا أعلم متى التقطت كل هذه الصور وكيف أتوا بها، فلقد تبقى فقط أن يريني تلك الصور التي أخذتها لي أمي وأنا طفلًا ذا عامين أستحم في الإناء الأخضر المقدس عندها، أراني كل ذلك ثم وضع هاتفه على الطاولة وابتسم، لم تكن ابتسامة صفراء فأنا أميزها جيدًا، توسمتُ فيه شيئًا طيبًا فقررت حينها معاملته كإنسان ناسيًا كونه واحدًا من الدبابير التابعة للغراب الأكبر..

قال:

- نعلم عنك كل شيء.. وليس عنك فقط.. بل نعلم عن الجميع كل شيء.. لكل واحدٍ منكم ملف خاصٌ به.. من يوم ميلاده إلى أن يموت.. وهذه عينةٌ من تلك الملف.

لم أُعقب فأكمل وهو يمشي في الغرفة:

- هناك دستورٌ يحكمنا.. وهناك قانون أيضًا يفصل بين الحق والباطل.. ولك الحرية في التعبير عن رأيك يا معاذ.. ولكن في حدود الحدود.

أجبته بسخريةٍ واضحة:

- حرية و حدود!.. كيف للنواقض أن تجتمع؟!.. فالحر حر والعبد عبد.. والحق حق والباطل باطل.. كذلك الحرية لا تمت للحدود بِصلة.

ابتسم ابتسامةً واثقة وقال:

- خطأ.. خطأ كبيرٌ يا معاذ.. إن لم تكن الحرية بقيود فسوف تتحول الدنيا إلى فوضى عارمة.. فالأرض حرةٌ أليس كذلك؟! فلماذا خُلقت الجاذبية إذن؟!.. والشمس حرةٌ أليس كذلك؟! فلماذا لا تأتي ليلًا حتى وإن كانت قادرةً على العمل وحرة؟!.. الحر حر يا معاذ هذا حقيقي ولكن لا تنسَ أبدًا أن للحرية قيودُ لابد من الالتزام بها وعدم الحياد عنها.

بدا أسلوبه وهدوئه مريحين بالنسبة لي، وبرغم عدم اقتناعي البتة بما يقول؛ لم يُفرض عليّ رأيه ووجهة نظره، كان يعرضها بأسلوب حضاري كاد يشككني أن من أحضروني إلى هنا أخطأوا عِش الدبابير وأتوا بي إلى المقهى الخاص بي في وسط القاهرة، فكرتُ قليلًا ثم رددت واضعًا الكرة في ملعبه:

- كلامك صحيح.. ولكن! تختلف القيود باختلاف العقول.. فجميع الأمثلة التي طرحتها أنت تمثل حريةً وقيودًا عقلانية ومنطقيةٌ وذا غرضٍ أيضًا.. أما قيودكم التي تضعونها لحريتنا ما لها بالعقل من شيء، تريدوننا أن نحبس أنفاسنا ونتنفس عبر خوفنا فقط،

نـرى مـن خلـف الضبـاب الـذي تنثرونـه في كل مـكان.. نصحـو مـن النوم لنُربـط بسـاقيةٍ لا تكـف عن الـدوران إلا عندما تـرى ظهرك قـد وهن فتقف لثانيـةٍ تودعـك وترحـب بثورٍ آخـر.. أهذه هـى الحريـة! أهذه هـي القيود!.. أهـذي هي مـصر التـي في خاطري وفي فمـي وفي «المشـمش»!!.

بدأت ابتسامته في الذهاب قليلًا ويحد من نبرة صوته قائلًا:

- اهدأ يا معاذ فإن أكملت الحديث هكذا لن تخرج من هنا.

سكت قليلًا وأردف:

- أنا لا أريدك أن تبقى هنا.. أريد مساعدتك فساعدني.

لم أتردد للحظة ووجدتني أقول له:

- لا أريد مسـاعدتك.. فمهما صلحت نفسُـك فأنت منهـم في النهاية.. لن يُغير إعجابي بشـخصك مـن الأمر شيء.

حـرك رقبتـه يمينًـا ويسـارًا مشـيرًا أنـه لا فائـدة من ذلـك، اتجـه ناحية البـاب ونـادى عـلى رجلـين ليأتيـان ويأخـذاني إلى سـجنٍ انفـرادي، وتلـك؛ كانـت المـرة الأولى التـي أرى فيهـا القضبـان حقيقـةً غـير متخفيـة..

*****

السجن.. القضبان الوردية، الظلام المُنير، معقل اللامنتميون الحقيقيون وأصحاب القضايا والهموم، مأوى من يحمل على عاتقيه حزن شعبٍ بأكمله، هنا حيث نختلي بأرواحنا من دون عوائقٍ أو مسافات، هنا حيث نجد أنفسنا.

لن تروا سجنًا في السينمات وما تصوره الكاميرات ويقرره المخرج والمؤلف، فالسجن الحقيقيّ يكمن في الكواليس، وراء الكاميرا والأضواء، فلا تنخدعوا بتلك الصورة التى رسموها عن السجن بأنه عقاب، فالعقاب الحقيقيّ أن تنسى ماهيتك وإنسانيتك، سيحولوك إلى آلة، تأكلُ لتعيش وتعيش لتأكل، سترى عبر ثقب الرؤية ببندقيتهم فقط، سيجعلونك تهمل النور فلا تصدقهم، فلا تستمع إليهم، فلك حياةٌ واحدة، إما أن تحياها رافعًا رأسك وإما أن تسجد لأحذيتهم وتُقبلها..

ربما يكون الوضع مأساويًا فقط عندما تمتد أوردة قلبك خارج السجن، فهناك أُناسٌ مهامهم الرئيسية في الحياة أن يمدونك بالدم والهواء، فربما تلتوي أنابيب التنفس تلك عبر تلك الجدران والقضبان، ولكني أشعر بهم جيدًا، أسمع دعاء رحمة، وتشجيع ياسين، وأرى فريدة، هي معي حيثما أذهب، وفور ما أخرج من هنا فأنا أعلم ماذا يجب عليّ فعله تجاهها، ولكني ظللت كثيرًا هنا، وكلما يزيد الوقت تزيد قوتي وإصراري، حتى أخرجوني قائلين لي بأني سأبقى تحت أعينهم فينبغي عليّ توخي الحذر فالمرة القادمة لن أخرج كما دخلت، لم يخيفني عواؤهم ذلك، فسيبقى الراعي راعٍ والكلاب كلابُ..

خرجتُ وأنا محملٌ بوصايا كانت مكتوبة على جدران السجن, مفعمٌ باشتياقٍ كبير لأهلي ولفريدة, لذا؛ قررتُ أن تصير تلك الكلمتين كلمة واحدةٌ ويندرج الخاص تحت العام, قررت أن أتزوج فريدة, فالزواج هو البداية وليس النهاية, بداية عمرٍ جديد مع من اخترته شريكًا لك في كل شيء, وإن كان شريكًا لك قبل الزواج فالأمر سيكون مغايرًا تمامًا بعد الزواج, فهي حلالك إذن, تحتضنها متى شئت, يراكما المجتمع فردًا واحدًا إذا ذكر أحدهما دل على الأخر, فالزواج لبنةٍ يُبنى بعدها البيت كله, وهذا البيت هو الوطن الذي يصير كوكبًا بعد ذلك..

تزوجنا, كان عُرسًا جميلًا ملأه الأحباب وأقارب الأقارب, لم يكن حفلًا صاخبًا لا نعرف فيه أحدًا, فلقد اقترحتْ عليَّ فريدة أن نوفر تلك المبالغ الطائلة ونبدأ حياتنا بمهمتنا الأساسية التى خُلقنا لها ولأجلها, نعبدُ الله ونقدسه ونحبه ونحب من يحبه, اقترحتْ بزيارة بيت الله وقِبلتنا فوافقتُ على الفور دون تفكير, نِعم الزوجة الصالحة هي, نِعم المرأة زوجتي, نِعم الأنثى فريدة..

كنتُ قد ذهبت إلى هناك قبل ذلك مع ياسين ورحمة ولكن هذه المرة مختلفة تمامًا, وجدتني أقف أمام بيت الله وأقول «ها قد أتيتك بها.. الشكر لك يا ربي عليها», سمعتني وابتسمت ودعت في سرها دعاءً لم أسمعه, فهي دائمًا ما تدعو لي دون أن أعلم بماذا تدعو, ولا تخبرني حتى وإن سألتها, تقول بأن ذلك بينها وبين الله

ولا ينبغي لمخلوق أن يتدخل بين مخلوقٍ آخر وخالقه, فكم هو جميلُ أن تعلم بأن هناك بشرًا يدعون لك وأنت غائطُ فى النوم لا تدري, فلا تندهش بحظك الطيب الوفير فجميعها دعواتٌ واستجيبت..

رجعنا وقد بدأت أشعر بضعف عيني غير المسوغ!, تجاهلته ظنًا مني أنه من قلة النوم وكثرة الكافيين, ولكنه بدأ فى التزايد وبدأت فريدة أيضًا بالشعور بذلك وتشاجرت معي بسبب إهمالي وضرورة ذهابي إلى طبيب ولكني كنت أرى أن الأمر لا يوجب كل ذلك القلق, لم تلقَ مني فائدة كالعادة فانتظرت حتى ذهبنا سويًا إلى بيتنا القديم وأخبرتْ ياسين ورحمة بذلك, أتذكر صدمتهما جيدًا ولكنهما لم ينطقا بشيء, ولأول مرة يجبرني والدي على شيء, أجبرني أن أذهب للطبيب وأن فريدة محقة, لم أعلم سبب قلق ياسين ورحمة بهذا الشكل حينها حتى أن فريدة نفسها اندهشت من ذلك, ولكنى الآن أعلم..

*****

أخـبرني الطبيـب أني لم يكـن عـليّ أن أحـب أبي لـكل هـذه الدرجـة, لم يكـن عـليّ تقليـده فى كل ما يفعـل, فى مشـيته وحركاتـه وكلماتـه وثقافته وكل شيء, فأنـا جـزءٌ منـه ولكنـي لم أكـن أعلـم بأنـه هو الآخـر جـزءٌ مني..

شـابٌ يحمـل مرضًـا وراثيًـا خطيرًا تسـبب فى فقـدان أبيه لحبيبتيـه, ماذا عسـاه أن يفعـل؟!, عليـه أن يبكـي ويبكـي وعندمـا ينتهـي من البـكاء يبتدئ بـكاءًا آخـر, ولكنـي لم أفعـل ذلك, ففـور ما أخـبرني الطبيب بذلك ابتسـمت, قابلـت الوجـع والألم بصـدرٍ رحب, ولكن فريـدة كان تبكي وبشـدة, لم أنهاها عـن ذلـك كـما أفعـلُ دائـمًا, تركتهـا تُنهـي حزنهـا على ما سـمعت حتـى تقف فى ظهـري صلبـةً كـما اعتدت عليهـا, فأنـا أعلم أنى عـلى أبواب حـربٍ وهي جيشي وجنـودي وأسـلحتي وكل شيء..

قال الطبيب وهو يوحي بابتسامةٍ مصطنعه تحمل أملًا خائبًا:

- يمكـن لنـا أن نـدرك الأمر مـن بدايته.. فلقـد تقدم الطـب كثيرًا عن زمـن أبيـك.. هنـاك عمليةُ جراحيـة يمكن لنا خلالهـا أن نعالج الميـاة البيضاء قبـل أن تكثر وتنفصل الشـبكية عـن بعضها.

أمسـكتْ فريـدة بيـدي وربتت عليها بشـدة, شـعرتُ بخوفهـا وبقلقها فابتسـمتُ أكثـر لتطمئـن, وضعـتُ يـدي عـلى يديهـا وأمـأت بـرأسي موافقًا فهـدأتْ, نظـرتُ للطبيـب قائلًا:

- موافــق.. فــالله معنــا ولــن يتركنــا أبــدًا.. وإن كان الخــير في فقدانهــا فأهــلًا بالخــير وأهلــه.

أتذكــر نظــرة فريــدة لي حينهــا, قبَّلــت يــدي ورأسي ثــم قالــت وصوتهــا مــا زال بــه أُثــر البــكاء:

- لن يضيعنا الله يا حبيبي.. لن يضيعنا الله أبدًا.

قبـل العمليـة بيومـين, تملكنـي هاجـس الكتابـة بشـكلٍ غريـب, ولكن عينـي لم تكـن لتسـاعدني على ذلـك فناديت عـلى فريـدة لتكتب لي ما سـيمليه عـلي ملـكُ الوحي الخـاص بي, تقبلـت طلبي بحنـانٍ بالغ وجلسـتْ بجواري تكتـب مـا أقول..

«أخـبرني الطبيـب أني عالقٌ بين النـور والظلام, أُقـف في منتصف طريقٍ لا أرى آخـره, أُمسـكُ بيـدي وردةً وعليّ محاربة السـموم بعبيرهـا, أخبرني عن أشـياءٍ بـدت لي حقيقيـةٌ كخيالكم الذي أتحكـم فيه الآن..

وأنكـرَ كل الحقائـق التـي أديـنُ بهـا منـذ وُلـدت؛ فلقـد قـال لي بـأن الطوفـان قـد طال سـفينة نـوح فأغرقهـا, وأن يوسـف لم ينجُ من المـوت وقتله إخوتـه, وأن كبـش إسـماعيل مـازال عـلى قيـد الحيـاة, وأن موسـى قـد تناول الذهـب بـدلًا مـن الجمـر, ونـار إبراهيـم لم تنطفـئ, ودآبـة سـليمان لم تـأكل مِنْسَـأَتَهُ فلـم تقـع عصـاه, وأن يونـس بقي وحـده في السـفينة ولا يعلم شـيئًا عـن حوتـه, وأن عيسـى قد صُلب ولم يُرفع إلى السـماء, أخـبرني الطبيب أن آدم يُصـاب بحساسـيةٍ مـن التفاح فـلا يأكلـه, أخـبرني أننا سـنولد قريبًـا في الجنة فلننتظر . . »

❋❋❋❋❋

الأجواء مضطربة إلى حدٍ ما, رائحة الخوف تتناثر فى الأرجاء, أصوات خفقات ياسين ورحمة تستقر فى أذني, ويدا فريدة تعزلني عن كل ذلك, لم يتبقَ سوى دقائق وأدخلُ غرفة العمليات لتُجرى تلك العملية الجراحية الدقيقة, مرّوا سريعًا ووجدتُ نفسي فى غرفة العمليات «ب» فابتسمتُ, رأيتُ حولي لفيفٌ هائلٌ من الأطباء والمستشارين, وآخر يستعد للتصوير بكاميرا «فيديو»!, علمتُ حينها أن العملية نادرة وخطيرة جدًا فابتسمت أكثر..

قال لي طبيب «البنج» عندما رآني ابتسم:

- ظِل كما أنت.. وأعدد من واحد إلى عشرة.

بدأتُ فى العدِّ وما إن وصلت إلى أربعة حتى فقدت الشعور بكل شيء, ولا أتذكر ماذا حدث حتى خرجتُ بعدها بثلاث ساعات..

الأجواء مضطربةً أكثر, الخوف رائحته أقوى, وأنا لا أشعر بشيء, حتى دخل الطبيب وقال بصوتٍ لا أعرف أكان متفائلًا أم خائفًا, كان مزيجًا من الاثنين:

- معاذ.. يجب أن تعلم بأن القدر قدر ولابد أن نرضى به.. لقد فعلنا ما في وسعنا والأمر كله لله.. سنزيل الغمامة من علي عينيك الآن ولابد لك أن ترضى بكل ما يقسمه الله لك.

لم أُعقب على ما قال ليبدأوا فى نزع الغمامة من على عيني ثم انتظروا ردة فعلي, ثوانٍ مرت وهم ينتظرون شيئًا يحدث مني ولا يعلمون أني أنتظرُ

معهـم, ولكـن؛ لم يحدث شيء, فابتسـمتُ, لم يفهموا شـيئًا من تلك الابتسـامة عـدا فريـدة, سـمعتُ صوت بكائهـا يُعلمهـم بما لم أقولـه, ليعلوا صـوت أمي بالبـكاء أيضًـا, وصـوت إغـلاق البـاب أيضًـا يبـدو أن الطبيـب قـد خـرج, وصـوت ياسـين كان بمثابة الرياح الباردة فى شـدة الحر, سـمعته يقول «اللهم لـك مـا اخـذت.. ولك مـا أعطيـت.. لـك الـكل والكل منـك.. لـك الكل والـكل منك»..

عـاد الأسـود يهيمـن ثانيـةً عـلى كل شيء, ولكـن تلـك المـرة كانـت سـيطرته حقيقيـة لا متخفيـةً في الحزن والظـلام, أصبحتُ كفيفًـا, نفذت قوتي وحيلتـي, لم أقوى على تحمل كل ذلك فسـقطت, سـقطتُ وقدمـاي تنهرني من شـدة الوقـوف طويلًا..

هنـاك لحظـاتٌ دائـمًا مـا ينفـرد الحـزن بنـا فيضعفنـا ويكسرنـا, كانـت تلـك هـي أصعـب الفـترات فى حيـاتي, لم أكـن أتحـدث كثـيرًا, لم أكـن أتحدث مـن الأسـاس, مللـتُ مـن نصحهـم لي بالصـبر, لا أحد يشـعر بذلك أبـدًا, لا يعلمـون شـيئًا ولا يشـعرون بـشيء, لا يدركـون معانـاتي ووجعي أبـدًا, حتى فريـدة, لم تكـن قـادرة عـلى فعـل شيء لي, حُزنها عليّ قـد أبعدها عنـي من دون أن تقصـد, حتـى شـعرتُ بـأن ألمـي قـد وصل حـد الحلـق وحان وقـت زهق الـروح لم يعـد هنـاك كيـلًا ليفيض, وفي تلـك الفترة غالبًـا ما تكـون القرارات خاطئـة وبطبيعـة شـخص مثلي دائـمًا ما تكـون القـرارات التى تُتخـذ فى ذلك الوقـت ظالمـة, وأول المظلومـين هـو أنا..

- أعلـم أنكِ لا زلتـي صغيرة وجميلة.. والعمر كلـه أمامك.. ولم تقترفي ذنبًـا حتـى تعاقبـين عليه بالبقـاء طـوال حياتك مع رجـل كفيـف.. أتعلمين! .. ربـما لم أقـترف أيضًـا ذنبًا لأكـون ذلك.. ولكـن لا يهم.. لذلـك فأنا أُحلك مـن جميـع الروابـط التـى بيننـا.. إن شـئتي الذهـاب فاذهبـي لـن أمنعك من ذلك.

لم أسـمع ردهـا, ولم يتسـنَّ لي رؤيتهـا فلم أعلـم مـاذا كان رد فعلها بعد مـا سـمعت ذلـك, صمتـت كثيرًا ثـم قالـت وهي تبكـي بكاءً شـديدًا:

- انتهيـت؟.. قلـتَ مـا تريـد قولـه؟!.. إذن دعنـي أتحـدث ولا تتكلـم أبـدًا.. أبـدًا يـا معـاذ.. أتريـد منـي أن أتـركك؟!.. بـكل هـذه السـهولة؟!.. أنـت لا تعلـم شـيئًا أبـدًا.. فأنـا ليـس لي بيـتٌ سـوى هنـا.. لا أنـام إلا بـين ذراعيـك.. لا أرى مسـتقبلا إلا بـك مهـما كان ذلـك المسـتقبل.. كيـف لـك أن تقـول لي ذلـك أخـبرني!!!..

لـن أتـركك يا معـاذ مهـما حـدث.. وإن أردت أنـت ذلك فلن أسـمح لـك بتركـي أبـدًا.. لقـد تعاهدنـا عـلى العيـش سـويًا.. في السراء والـضراء.. فى الخير والـشر.. وإن كنـا شركاء فى الفـرح فسـوف نتشـارك فى الحـزن أيضًـا.. أليـس هذا عهدنـا وميثاقنا يا معـاذ؟!.. أنسـيت؟!!.. إن هـذا البيت بيتـي.. وأنـت رجُـلي وقـوتي وكل شيء.. لأ أقـوى عـلى العيـش مـن دونـك ولا لحظـة واحـدة.. أُقسـم لـك أني لا أقـوى عـلى العيـش مـن دونك أبـدًا..

صمتـت قليـلًا بعدهـا ثـم ارتمـت بـين ذراعـي فاحتضنتهـا بـكل مـا أوتيـتُ مـن ضلـوع, أويـتُ إلى موطنـي الحقيقـي, ومنـذ تلـك اللحظـة وأنـا مُسَـلمٌ تمامًـا للقـدر, كانـت لحظـات ضعـفٍ وذهبـت لتأتينـي قـوةً بـدلًا منهـا, أخبرتنـي حينهـا أننـا لابـد أن نواجـه كل ذلك أقويـاء كما عودتها, وإذا كانـت يدانـا متصلـةٌ ببعضهـا فـماذا يكـون للسـحر الأسـود بعـد ذلـك؟!, فالظـلام لا يمكنـه طـرد الظـلام, النـور فقـط يمكنـه فعـل ذلـك، والكراهية لا يمكنهـا طـرد الكراهيـة, الحـب فقـط يمكنـه فعـل ذلك .

وافقتهـا وتركـت لهـا يـدي تسـير بي فى الطرقـات التـى تشـاءها, أمـا عـن العمـل فنحـن نعمـل بمجـال الهندسـة سـويًا, وبعـد مـا أصبحـت كفيفًـا أصبحـت الكتابـة هـي شـغلي وعمـلي ومصـدر رزقـي, فهـي الوظيفة التـى طالمـا تمنيتهـا, فكـم هـو طيـبٌ أن تعمـل مـا تحـب دون أن تصبـح مـا تحـب, ولكنـي لم أكـن أكتـب بيـدي, بـل كانـت فريـدة تجلـس بـرأسي تتلقـى الوحـي وتكتـب هـي, فكانـت هـي جمهـوري الـذي ينتظـر مـا أكتبـه دائـمًا, وتنتظـر حتـى أنهـي مـا أمليـه عليهـا وتكتبـه وبعـد ذلـك تخـبرني عـن رأيهـا, لا تقاطعنـي أبـدًا حتـى وان كنـتُ أكتـب لهـا, وكانـت تعلـم أنهـا هـي الوحيـدة التـى جـاز لهـا أنهـا تـراني وانـا أكتـب, فللكتابـة حرمـةٌ شـأنها شـأن جميـع الأعـمال الروحانيـة, ورأيهـا عنـدي كفـرض الكفايـة؛ إذا فعلـه البعـض سـقط عـن الـكل, فـإن نـال مـا كتبتـه استحسـانها فـلا رأي مهـمٌ بعدهـا إذن, فكانـت فريـدة هـي كل شيء, فلقـد تعلمـت كيـف أرى الله منهـا؛ في يديهـا التـي أتـوكأ بهـا عـلى عصـاي، في عينيهـا التـي تتجـلى

بعظمـة الله ومهابتـه فـأرى كل شيء كـما يريـدني أن أرى، لقـد رأيـت الله فيها كـما يريـدني أن أراه, فـالله رحيـمٌ, الله رحمـنٌ, الله جميلٌ يحب الجـمال وما للجمال رسـولةٌ سـواها, فهي لا تشـبه أحدًا.. فهـي فريدة.



أخبرتني العرافة أني لست براهبٍ كما زعمت، وأن هناك راهبة في الضفة الغربية من قِبلتي تخطئ أيضًا في اعتقادها أنها راهبة، أحببنا الله فجعل المحبة فينا هدىً يقطن في قلوبنا فنحبنا دون أن يرى أحد مننا الآخر. لم أصدقها! ثمة درويشة قد بلغت من العمر أرذله تخبرني أن تلك الأقفال التي برعت في إحكامها على قلبي هناك من يملك مفاتحها، تلك الأسوار التي لا أخر لها ولا أول هناك من يختلق بابًا ويعبر خلالها بكل سهولة!، كيف بتلك الخرِفة أن تخبرني أنني أمتلك جناحين ويمكنني الطيران! كيف لها أن تخبرني بأنني لم ارَ الدنيا بعد وأن هنالك حياة لم أكن أسمع عنها مطلقًا! إلى الآن.. لا أعلم كم كأس من الخمر قد تناولته قبل نومي لأرى تلك العرافة تأتي من بعيد وهي تمسك بيدكِ وتشير إليّ، وإن كنت فاسدًا اتجرع الخمر فكيف بحورٍ مثلك لا تميز بين الخمر والعسل أن ترى ما رأيته في اليوم ذاته، في الوقت ذاته، وقد كان الفجر رجلًا يشمر عن ساقيه للوضوء..

عجبًا لكِ يا صغيرتي، تميلين على كتفي وتطلبين مني أن أروي لك ذلك رغم أنك تعلمينه جيدًا، ولكنني مستعدٌ دائمًا لأرويه طيلة حياتي ما دمتي هنا.. في مكانك الذي حفظته لكِ حتى ظننت أني راهبٌ.. راهب قد رأى محبة الله في عينيكِ فأحبكِ, وما سبيل راهب مثلي إذا أحب الله شيئًا إلا أن يحبه.

وربما نحـن في زمـنٍ قـد أصابـه العقـم فلـم يعـد يؤمـن بالمعجـزات, وأصبـح يؤمــن بالقوانــين والاســتنتاجات فقــط.. ولكــن! إذا مــا علــم يومًــا أنــكِ قــد هربــتِ مــن أسراب الحــور التــي تنتمــين لهــن واختبــأتي في ثــوب حــواء! هــل ســيعلن حينهــا بطــلان قوانينــه ويفرضــكِ معجــزة هــي «الفريدة»مــن نوعهــا..

أتمنى ذلك.

معاذ – فريدة

******

صمتت..

نظرت إلى عينيه التائهتين في ذلك الفراغ المزعج..تركت أناملها الدافئتين تقبض على يديه الباردتين لتطمئنه.. ولكن لا شيء يتغير.. ما زال لا يراها رغم أن أنفاسها تكاد تخرج من رئتيه لشدة دنوها من رأسه.. ما زالت تستند إلى كتفه وتحلم بأحلامٍ كثيرة تعلم أنه لا يشاركها إياها.. ولكنها تكتفي فقط بأن تحلم .
كم هو قاسٍ أن يقتصر حلمك في بيت صغير مع شخصٍ تقتصر عليه كل ما هو داعٍ للحياة, ولكن ذلك الشخص قد استئصل من خياله أن يبقى بجانب أحد.. أصبح لا يحلم.. وإذا حلم! فستكون كل السبل تؤدى إلى العزلة.. تعلم بأنه تائه.. ولكنها لم تسأل يومًا لأنها تعلم أنها لن تجد إجابة تطفئ نيران قلقها.. تتذكر ذلك اليوم الذى رأته فيه في ذلك المكان وبتلك العينين التائهتين أيضًا ينفخ بدخان سيجارته ليصنع هالةً من الغموض تجذب إليه كثيرًا من نسل حواء.. تتذكر جيدًا كم كان ممتعًا أن تقضي ساعات تنظر إليه وهو لا يلقي لها بالًا.. كم كان ممتعًا ذلك! وكم هو قاسٍ الآن ..

حبيبة – آسر

شـعرتُ أن ثمة شيء ما يحدث لم استطع به خبرا! ماذا يحدث !! أيا تُرى قـد أسـلم اليهـود ؟! أم أن العرب قد أرسـلوا قنبلـة نووية فتهتكـت بها أمعاء أمريـكا!! مـا هذا الحـدث الجلل الـذي يفعل بي هكـذا! أخذت شـهيقًا هادئًا عندمـا وجدت السـاعة تـدق بالثانيـة عشر وتعلن أننـا أصبحنا في يـومٍ أعتقد أنـه الأهـم بين إخوتـه، إنه الحـادي عشر مـن يوليو فـلا داعي للرهبـة إذن .. هـا انتـي الآن، في مقتبـل عقـد جديـد، وقـد أضفـتِ لقوائـم الذيـن تخطـوا حاجـز السـتين بعضًا من سـحرك الهادئ، هـا نحن الآن، نعـد أدراج رحيلك بكـمٍ هائـل مـن الذكريـات وكل مـا اقترفتيـه في أعوامـك السـابقة إلى مـكانٍ آخـر يرحـب بـكِ كثـيرًا، فأهـلًا بكِ يـا عزيـزتي في عالم السـتين ..

أعتقـد أنـك تعلمـين جيدًا أيـن أنـتِ بداخلي، وأعلـم أيضًا أنـك ترين أنـكِ تشـبهيني أكثـر منـي، ولكـن مـا أعتقـد أنـك تجهلينـه أن الله جعلـك كاسـمكِ، لوحـةً مأخـوذةً بيـد فنـان محترف قـد تاب بعدهـا واعـترف بأنه ما كان ليرسـمك إلا إذا خضـع للجـن ليسـاعدونه في فعل ذلك العمل الشـاق، أعـذره تمامًـا وأعذر كل من يـراكِ ويصبأ عن ملته ليتبع مـا تتبعين يا عزيزتي .. كل عـام وأنـتِ كـما أنـتِ.. تلك الرحمـة التي وهبهـا الله لنا حين اسـتحكمت حلقـات الدنيا..

رحمة.. هكذا اسمك، هكذا أنتِ .

ياسين – رحمة

هو..

لم أسمع ردها, ولم يتسنَّ لي رؤيتها فلم أعلم ماذا كان رد فعلها بعد ما سمعت ذلك, صمتت كثيرًا ثم قالت وهي تبكي بكاءً شديدًا:

- انتهيت؟.. قلتَ ما تريد قوله؟!.. إذن دعني أتحدث ولا تتكلم أبدًا.. أبدًا يا معاذ.. أتريد مني أن أتركك؟!.. بكل هذه السهولة؟!.. أنت لا تعلم شيئًا أبدًا.. فأنا ليس لي بيتٌ سوى هنا.. لا أنام إلا بين ذراعيك.. لا أرى مستقبلا إلا بك مهما كان ذلك المستقبل.. كيف لك أن تقول لي ذلك أخبرني!!!.. لن أتركك يا معاذ مهما حدث.. وإن أردت أنت ذلك فلن أسمح لك بتركي أبدًا.. لقد تعاهدنا على العيش سويًا.. في السراء والضراء.. فى الخير والشر.. وإن كنا شركاء فى الفرح فسوف نتشارك فى الحزن أيضًا.. أليس هذا عهدنا وميثاقنا يا معاذ؟!.. أنسيت؟!!.. إن هذا البيت بيتي.. وأنت رجُلي وقوتي وكل شيء.. لأ أقوى على العيش من دونك ولا لحظة واحدة.. أُقسم لك أني لا أقوى على العيش من دونك أبدًا..

صمتت قليلًا بعدها ثم ارتمت بين ذراعي فاحتضنتها بكل ما أوتيتُ من ضلوع, أويتُ إلى موطني الحقيقي, ومنذ تلك اللحظة وأنا مُسَلمٌ تمامًا للقدر, كانت لحظات ضعفٍ وذهبت لتأتيني قوةً بدلًا منها, أخبرتني حينها أننا لابد أن نواجه كل ذلك أقوياء كما عودتها, وإذا كانت يدانا متصلةٌ ببعضها فماذا يكون للسحر الأسود بعد ذلك؟!, فالظلام لا يمكنه طرد الظلام, النور فقط يمكنه فعل ذلك، والكراهية لا يمكنها طرد الكراهية, الحب فقط يمكنه فعل ذلك

أمسكت بيدي ووضعتها على بطنها وهي تقول بدلالٍ يسحرني:

- وحتى هذا أيضًا لا يمكنه تركك..

لم أفهم ما تعنيه، فأردفتْ وصوت بكائها يتحول إلى زقزقات الكناريا وقت الغروب:

- ونحن ببيت الله دعوته أن يرزقني بطفلٍ منك.. وبعدها لن أطلب شيئًا أبدًا.. يكفي ذلك.. والله يكفي ذلك..

سقطت دموعي رغمًا عني فمسحتها وأكملتْ:

- وعلمت أني حامل يوم العملية.. كنت سأخبرك ولكنك تعلم أن حزني عليك قد كان ليقتلني يا معاذ.. وأعتذر إن كنتُ قد قصرت فى حقك حتى جعلتك تقول ما قولته منذ قليل ولكني أقسم لك أن آلام الحمل تشتد عليّ كثيرًا ويكون ضروريًا أن أذهب للطبيب ولا أذهب فيشتد التعب عليّ.. وأخاف عندما أسمع أن الحزن يؤثر على الجنين فأحاول الصمود من دونك وأعود إليك قويةً أقف في ظهرك كما العادة.. ولكني لست قويةً أن أشعر لذلك الحد الذي أشعر فيه بالراحة فى مكانٍ لستَ فيه.. ولا أقوى على فعل شيءٍ دونك.. فأنت قوتي وقُوتي وكل شىء.. فلقد زرع الله حبك بقلبي وثبت جذوره فنمى كيفما شاء.. فلا تحزن يا حبيبي إن الله معنا..

أُنا..

اقتربت دقيقتان على بداية العرض، القاعة تعجُ بالمشاهدين، والممثلون الحقيقيون يستترون بين الصفوف فلن تميزهم، الكاميرات متأهبةٌ كالمدافع، كلٌ مسيرٌ لما كتبته له..

فُتح الستار فصفق الجميع لمن يعتلون المسرح، لم أُصفق معهم، فدوري أهم، لم يأتِ دوري بعد..

تعاطف الجمهور مع الشيخ الكفيف وأحبوه، وأحبوا حبه لزوجته، رأيت ذلك فى أعين اثنين يجلسان فى الصف الأخير، يمسكان بيدي بعضهما التي أهلكتهما التجاعيد، يُقبل رأسها، وتبتسم..

كرهوا تلك الجميلة التى أنكرت يد البطل وآمنتْ بكومبارسٍ لم يصعد المسرح لمرةٍ واحدة..

أحبوا العرافة لتمثيلها الصادق، لا يعلمون أنها عرافةٌ فعلًا وكل شيء يحدث على خشبة المسرح حقيقيّ، حقيقيٌّ جدًا..

أشفقوا على البطلة التى أحبت البطل وتمنوا لو أوقفوا العرض لثوانٍ وأخبروه بأنها تحبه..

بكوا لبكائهم، فرحوا لفرحهم، غنوا معهم، تعاطفوا معهم، اجتمعوا على كل شيء سويًا الا عندما تأتي سيرة الغراب الأكبر وجنوده، حينها ينقسمون..

انتهـى العـرض، والجمهـور متأهـبٌ لـيرى المحـرك الرئيـسيّ لـكل شيء يحـدث عـلى خشـبة المـسرح، انتظـروا كثـيرًا وكثـيرًا ولم أظهـر، هـا هـو دوري الـذي انتظرتـه طيلـة حيـاتي، أتأمـل التصفيـق الحـار وأغمـض عينـي متذكـرًا جميـع مـا مـررت بـه وأبتسـم، أبتسـمُ كأننـي قويًـا، ولكنـي قـويٌ فعـلًا، وسـأثبت ذلـك حـالًا..

صعـدتُ عـلى المسرح، صُوبـت الأضـواء تجاهـي، لم أفـرح، ولا أعلم لمـاذا، ربـما بسـبب ضعف عينـي الذي جعلنـي أرى الأضـواء نجومًـا والبشر كواكبًـا، لا أعلـم حقًا، ولكنـي في مكاني الـذي حاربت للوصـول اليه.. هذه هـي النهايـة التـى قلـت يومًـا أني سـأصل إليها وحـدي.. وهذا هـو اللاشيء الأخير..

وهذا هو أنا.. ياسين معاذ ياسين.

تمت بحمد الله

إهداء

قبـل مـا أكتـب الإهـداء ده فكـرت إني أهـدي الرواية دي لـكل الناس الـلي وقفـوا جنبـي لحـد مـا الروايـة ظهـرت للنـور.. لقيـت إنهـم كتـير وانـا عـارف إنهـم هيعرفوا نفسـهم وهما بيقـروا الـكلام ده دلوقتـي.. لكن مكنش ينفـع الإهـداء ده يبقـى لحد غـيرك.. جايز هما سـاعدوني في حلمـي لكن أنت سـاعدتني أكـون أنـا.. حطيـت رجـلي عـلى أول الطريـق وأنا بكمـل أهو ..

ربنا يكافئك على أد تعبك عشاننا طول السنين دي..

شكرًا ياعمو ♥

أ/ مصطفى عبد العال

شكر خاص

الكوتش/ سيد شعبان

الشيخ/ جمال عبدالصمد

الكاتب/ أحمد المنزلاوي

المصور/ حسام جمال

الرواية دي منكوا وليكوا .. شكرًا.

للتواصل مع الكاتب

وإبداء الأراء عن الرواية

https://www.facebook.com/aboali100

